

رجع

وحيث انتهينا إلى هذا المقدار من الخروج عن أصل الترجمة فلنشن العنان إلى ما ألمنا به أولاً مع ذكر سبته أعادها الله فنقول:

إنَّ بعض الفقهاء يذكر في شأن سبته حديثاً عن رسول الله ﷺ قد اختلف الناس في أمره وقد حدث به الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن يحيى السراج، عن جده العلامة أبي زكريا السراج، قال أخبرنا أبو البركات محمد بن إبراهيم قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد الغافقي، حدثنا محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدي، حدثنا محمد بن حسن بن عطية، هو ابن غازي، حدثنا أبو الفضل عياض، حدثنا أحمد بن قاسم أبو العباس الصنهاجي، شيخ لا بأس به أنبأنا أبو علي بن خالد، وأبو عبد الله محمد بن عيسى قالوا حدثنا عبد الله محمد بن علي بن الشيخ، حدثنا وهب بن مسرة، عن محمد بن وضاح، عن سحنون، عن أبي القاسم، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال:

«مدينة بالمغرب سمعت رسول الله ﷺ يقول إنها على مجمع بحرى المغرب وهى مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه السلام واشتق لها اسما من اسمه فهى سبته ودعا لها بالبركة والنصر فلا يريد أحد بها سوءاً إلا رد الله دائرة السوء عليه».

هكذا ذكره الشيخ الإمام الحافظ سيدى أبو عبد الله محمد ابن الشيخ العالم الربانى، سيدى الحسن بن مخلوف التلمسانى - رحمه الله - فى شرحه للشفاء، ورواه عن شيخه أبى عبد الله السراج المذكور، بالسند المذكور، وقال إثره: تردد رأى القاضى عياض فى هذا الحديث فى الغنية: «أنا براء من

عهدة هذا الحديث». وفيه: «هذا حديث موضوع. وابن الشيخ لا يتهم ولا أدرى من أين دخل عليه هذا». وفي المدارك: «هو حديث رواه ابن الشيخ عن وهب بن مسرة يرفعه إلى مالك عن نافع عن ابن عمر:

أنَّ في أقصى المغرب على ساحل من سواحل البحر مدينة تسمى سبتة أسسها رجل صالح اسمه سبت واشتق لها اسما من اسمه ودعا لها بالناصر والظفر فما رامها أحد بسوء إلاَّ رد الله بأسه عليه».

وذكر أشياء على من رامها بسوء ثم قال: وهكذا كله يصدق هذا الحديث. انتهى.

وكانت سبتة مطمح همم ملوك العدوتين، وقد كان للناصر المرواني صاحب الأندلس عناية واهتم بدخولها في إيالته، حتى حصل له ذلك، ومنها ملك المغرب حسبا هو مذكور في أخباره، وكان تملكه إياها سنة تسع عشرة وثلاث مائة، وبها اشتد سلطانه وملك البحر بعدوتيه، وصار المجاز في يده، وتوطدت طاعته بأرض المغرب، وكان أول من سما إلى ذلك من أملاك الأندلس، منذ سكنها الإسلام، فاستظهر بها على أمره، وخلفها ميراثا لمن بعده من ولاية الأندلس، وأكرم وجوه أهل سبتة الذين جنحوا إلى طاعته، ورفع منازلهم، وقضى حوائجهم، ووصلهم، وخلع عليهم وعلى قاضيه حسين بن فتح.

والناصر أول من تسمى بأمرير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس، لأن الدولة عظمت في أيامه حين اختل نظام ملك العباسيين بالشرق، وتغلبت عليه الأعاجم، ولم يتسم أحد من سلفه بالأندلس إلاَّ بالأمرير، وكان ملكه بالأندلس في غاية ما يكون من الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبقى أمة سمعت به

من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلاّ وجرت إليه، أو وفدت خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية. وقد سرد الإمام ابن حيان من ذلك فى تاريخه الكبير ما هو معلوم، وذكر هو وغيره أنّ صاحب مدينة القسطنطينية العظمى هاداه، ورغب فى موادعته.

وكان وصول أرسال صاحب القسطنطينية عظيم الروم قسطنطين بن ليون فى شهر صفر سنة ثمان وثلاثين^(١) وثلاث مئة، وتأهب الناصر لورودهم، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه، وأخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمد بن الليث وغيره، لخدمة أسباب الطريق، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة، خرج إلى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية، فتلقوهم قائدا بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين: ياسرا وتما، إبلاغا فى الاحتفاء بهم فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه، وأنزلوا بمينة ولى العهد الحكم، المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة فى الربض، ومنعوا وحموا من لقاء الخاصة والعامة، وملابسة الناس جملة، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجه الحشم، فصيروا على باب قصر هذه المينة ستة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربعة منهم، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة، لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، فى بهو المجلس الزاهر، قعوداً حسناً نبيلاً، فقعد عن يمينه من بنيه، ولى العهد الحكم، ثم عبد الله، ثم عبد العزيز أبو الأصبغ، ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر، ثم عبد الجبار، ثم سليمان، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يطق الحضور

(١) نفح الطيب ١/٣٦٤.

وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعثاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديداج ورفيع الستور، فوصل [رسل]^(١) ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك، وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية، وهو في رق مصبوغ لونا سماويا، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً، مكتوب بفضة بخط إغريقي أيضاً، فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب، وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة قسطنطين الملك، معمولة من الزجاج الملون البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديداج، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه^(٢):

«قسطنطين ورومانس المؤمنين بالمسيح، الملكان العظيمان، ملكا الروم».

وفي سطر آخر:

«العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله تعالى بقاءه».

وفي خمس بقين منه نقل هؤلاء الرسل من منزلهم بمنية نصير بالربض، إلى دار إبراهيم الفتى، بداخل قرطبة.

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٣٦٨/١.

وفى آخر هذا الشهر أعاد الناصر لدين الله القعود الثانى لرسلك الملك الروم، بقصر الزهراء، فاحتفل لذلك أيضاً، واستكمل له الأبهة، وبالغ فى الزينة، وقعد على باب السدة صاحب المدينة، مع من ضم إليه من العرفاء والشرط والحرس، وهم صفوف قيام، وقام مع سور القصر سباط من الموالى، فى الملابس الحسان والسلاح الشاك، وألزم الفصلان كلها جملاً من العبيد والحشم والبوابين وغيرهم فى أشكل زينهم.

ثم أعاد القعود لهم بالزهراء، وهذا القعود الثالث كان يوم الخميس لثلاث بقين منه، على ما تقدم فى الأبهة والاحتفال فى الزينة.

وفى النصف من جمادى الأولى منها أدخل الناصر لدين الله هؤلاء الرسل على نفسه، فى مجلس خاص، قعد لهم فيه بقصر الزهراء، فى المجلس المشرف على الرياض، فلما خرجوا من عنده أدخلوا فى ديار الصناعات والعدة بأكناف الزهراء، ودار السكة، وطيف بهم بأرجائها، ثم صرفوا إلى دار نزولهم، فاتصل مقامهم بقرطبة فى كرامة موصولة، وعطايا متوالية، إلى أن كملت الهدية التى كوفى بها الطاغية مرسلهم، وأسلمت إليهم، مع أجوبتهم، وأمروا بالرحيل.

وجلس لهم الناصر لدين الله فى النصف من شوال من السنة بعدها، فدخلوا للوداع، وجددت لهم الخلع، وانطلقوا لسييلهم، متعجبين مما رأوه من عز الإسلام.

وفى سنة سبع وعشرين وثلاث مئة لثمان خلون من شهر جمادى الأولى، وردت على الناصر لدين الله هدية وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد العظيمة الشأن، التى اشتهر ذكرها إلى الآن، ووقع الإجماع على أنه لم يُهادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها، فأعجب الناصر وأهل مملكته جميعاً،

وأقروا أن نفسا لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها، وكتب مع هديته هذه رسالة حسنة، بالاعتراف للناصر لدين الله بالنعمة، والشكر عليها، واستحسنها الناس وكتبوها. وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا، وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا فأضعف له رزق الوزارة، وبلغه ثمانين ديناراً في الشهر وبلغ مصروفه إلى ألف دينار في السنة، وثنى له العظمة، لتثنيته له الرزق فسماه ذا الوزارتين لذلك، وكان أول من سمى بذلك بالأندلس امتثالاً لاسم صاعد بن مخلد الوزير، وزير بني العباس ببغداد، وأمر بتصدير فراشه في البيت، وتقديم اسمه في زمام الارتراق في أول التسمية، فعظم مقداره في الدولة جدا.

وتفسير هديته هذه على ما ثبت في كتابه للناصر: وذلك من المال العين خمس مائة ألف دينار، ومن العود المرتفع أربع مائة رطل، منها في قطعة واحد مائة وثمانون رطلاً، ومن المسك الذكي المفضل في جنسه مائتا أوقية واثنتا عشرة أوقية، ومن العنبر الأشهب الذي بقى على خلقة ولم تدخله صناعة مائة أوقية، منها قطعة عجيبة الشكل أربعون أوقية، ومن الكافور المرتفع النقى الذكي ثلاث مئة أوقية، ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة، وبقج خاصية للباسه، بيضا وملونة، وخمس ظهائر شُعَيْيَّة^(١)، خاصية له، وعشرة فراء من عالي الفنك، منها سبعة بيض خراسانية، وثلاثة ملونة، وستة مطارف عراقية خاصية له، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته، ومائة ملحفة زهرية لرقاده، وعشرة قناطير شد فيها مائة جلد سمور، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من لون الحرير، قبض جميع ذلك صاحب الطراز، وثلاثون بساطاً من صوف مختلفة الصناعات، طول كل بساط منها عشرون ذراعاً، ومائة مصلى من وجوه الفراش المختلفة الصناعات، من جنس البسط، وخمسة عشر نخاً من عمل الخز المقطوع

(١) نوع من الأقمشة.

شطرها، وسائرهما من جنس البسط الوجوه، ومن السلاح والعدة مائة تجفاف، بأبدع الصناعات، وأغربها وأكملها، وألف تُرْس سلطانية، ومائة ألف سهم، ومن الخيل مائة فرس، منها من الخيل العرب المتخيرة لركابة خمسة عشر فرسا، وخمسة من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة، لمراكب الخلافة، مجالس سروجها خز عراقي، وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم، وخمسة أبغل عالية الركاب، وأربعون وصيفا، وعشرون جارية من متخير الرقيق، بكسوتهم وجميع آلاتهم.

وفى الكتاب: كان قد أمرنى أيده الله بابتاعهم من المال الأخماس قبل، فابتعتهم من نعمته عندي، وصيرتهم من بيتي، ومع ذلك عشرة قناطير سكر طبرزد، لا سَحَاق فيه.

وفى آخر الكتاب: ولما علمت تطوع مولاي - أيده الله تعالى - إلى قرية كذا بالقنباية المنقطعة الغرس في شرفها، وترداده - أيده الله تعالى - لذكرها لم أنها بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها وأكتبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه، وضمها إلى ضياعه، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظر الجيان، عندما اتصل بي من وصفه لها، وتطلعه إليها، فما زلت أتصدى لمسرته بها، حتى ابتعتها الآن بأحوازها، وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية، وصار في يده له أبقاه الله سبحانه، وأرجو أنه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى.

ولما علمت نافذ عزمه - أبقاه الله تعالى - في البنيان، وكلفه به، وفكرت في عدد من الأماكن التي تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها، مدّ الله في عمره، وأوفى بها على أقصى أمله، علمت أن أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه، فأثارت لى همتي ونصيحتي حكمة حيلة أحكمها

سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم علمه ، حيلة أقيم لك بها فى عام واحد عدد ما كان يقوم على يد عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما ، ويتتهى تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفا ، أعجل شأنه فى عام سوى التوفير العظيم الذى يديه العيان قبلا إن شاء الله تعالى ، وكذلك ما ثاب إلى فى أمر الخشب لهذه المنية المكرمة ، فإن ابن خليل عبدك المجتهد الدءوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج إليه ، ثلاث مائة ألف عود ، ونيف على عشرين ألف عود ، على أنه لا يدخل منه فى السنة إلا نحو الألفى عود ، ففتح لى سعدك رأيا أقيم له بتمامه جميع هذه الخشب العام على كماله ، بورود الجليلة لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا إلى الستين ألفا .

انتهى ما بعث به الوزير ابن شهيد ملخصا .

ومن الغريب ما يحكى أن أمير المؤمنين أراد الفصد ، فقعد فى البهو بالمجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الموضع ، وجس عضد الناصر ، فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور ، فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنين

إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف وسر به غاية السرور ، وسأل عمّن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور ، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة ، أم ولده ولى عهد الحكم المستنصر بالله ، صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار .

والناصر المذكور^(١) هو الباني لمدينة الزهراء العظيمة المقدار. وكان يعمل في جامعها حين شرح فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة، منها ثلاث مئة بناء، ومائتا نجار، وخمس مائة من الأجراء وسار أهل الصنائع، فاستتم بنيانه وإتقانه في مدة ثمانية وأربعين يوما، وجاء غاية الإتقان، من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة. وطوله من القبلة إلى الجوف، حاشى المقصورة، ثلاثون ذراعا، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعا، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنتا عشرة ذراعا، وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا، وعرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعا، وجميعه مفروش بالرخام الخمرى؛ وفي وسطه فوارة يجرى فيها الماء؛ فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف - سوى المحراب - سبع وتسعون ذراعا، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعا، وطول صومعته في الهواء أربعون ذراعا، وعرضها عشر أذرع في مثلها.

وأمر الناصر^(٢) لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد؛ فصنع في نهاية من الحسن، ووضع في مكانه منه، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة. وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله، وذلك يوم الخميس لسبع بقين من شعبان من سنة تسع وعشرين وثلاث مئة.

وكان في صدر^(٣) هذه السنة كمل الناصر ببيان القناة الغربية الصنعة، التي أجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة،

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

فى المناهر المهندسة؁ وعلى الحنايا المعقودة؁ ىجرى مأؤها بتدبير عجب؁ وصنعة غريبة محكمة؁ إلى بركة عظيمة؁ عليها أسد عظيم الصورة؁ بديع الصنعة؁ شديد الروعة؁ لم يشاهد أوفى منه ولا أبهى منه فىما صور الملوك فى غابر الدهر؁ مطلى بذهب إبريز؁ وعيناه جوهرتان؁ لهما وميض شديد. ىجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد؁ فىمجه فى تلك البركة من فىه؁ فىبهر الناظر بحسنه وروعة منظره؁ وثجاجة صبه؁ فتسقى من مجاجة جنان هذا القصر على سعتها؁ وىستفيض على ساحاته وجنباته؁ ويمد النهر الأعظم بما فضل منه؁ فكانت هذه القناة وبركتها؁ والتمثال الذهب الذى ىصب فىها؁ من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر؁ لبعء مسافتها؁ واختلاف مسالكها؁ وفخامة بنیانها؁ وسُمّو أبراجها؁ التى ىترقى الماء فىها؁ وىتصوب من أعاليها.

وكان مدة العمل فىها؁ من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت [أعنى القناة] إلى هذه البركة؁ أربعة عشر شهرًا. وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر؁ يوم الخمىس غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة؁ وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة؁ أفضل فىها على عامة أهل مملكته؁ ووصل المهندسىن والقوام بصلات حسنة جزيلة.

واستمر العمل فى مدينة الزهراء من عام خمسة وعشرىن وثلاث مئة [إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم؁ وذلك نحو من أربعىن سنة]^(١).

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما ذكره آنفًا؁ كانت أول جماعة صليت فىه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقىن من شعبان؁ وكان الإمام

(١) نفح الطىب ج ١ ص ٥٦٥ وما بىن حاصرتىن منه.

لها فيه القاضى [أبا عبد الله]^(١) محمد بن عبد الله بن أبى عيسى . ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة ، وأول خطيب خطب به القاضى المذكور .

ولما بنى الناصر^(٢) قصر الزهراء . المتناهى فى الجلالة والفخامة ، وأطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل إليه أحد قط من سائر البلاد النائية ، والنحل المختلفة ، من ملك وارد ، ورسول وافد ، وتاجر ، وجهبذ ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه ، وتحدث عنه ؛ والأخبار عن هذا تتسع جدا ، والأدلة عليه تكثر ، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد ، المشرف على الروضة ، المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موزون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتمائيل عجبية الأشخاص ، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ؛ فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة ، كيما يرى الغافلين عنه من عباده ، مثالا لما أعده لأهل السعادة فى دار المقامة ، التى لا يسلط عليها الفناء ، ولا تحتاج إلى الكرم ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم .

(١) التكملة من نفح الطيب .

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٦٥ .

وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان^(١) صاحب الشرطة، أن مبانى قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة، حاملة ومحمولة، ونيف على ثلاث مئة سارية زائدة؛ وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة منها ما جلب من دينة رومة، ومنها ما أهدها صاحب القسطنطينية؛ وأن مصاريع أبوابها، صغارها وكبارها، كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله أعلم، فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجله خطراً، وأعظمه شأناً.

وقال بعض المؤرخين: وكان عدد الفتیان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبع مئة وخمسين فتى، ودخالتهم من اللحم كل يوم، حاشى أنواع الطير والحوت، ثلاثة عشر ألف رطل؛ وعدة النساء بقصر الزهراء، الصغار والكبار وخدم الخدمة، ستة آلاف وثلاث مئة امرأة وأربع عشرة. ورأيت فى بعض الدواوين - وهو الصواب إن شاء الله - أن عدد الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسون، [وجعل بعضهم مكان الخمسين سبعة وثمانين]^(٢)، وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكرنا أولاً.

ثم قال بإثره: وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان. والله تعالى اعلم.

وقال ابن حيان^(٣): ألفيت بخط ابن دحون الفقيه، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله ببناء الزهراء أول سنة

(١) نفح الطيب ٥٦٩/١.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٥٦٧/١.

خمس وعشرين وثلاث مائة، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى المنصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد. وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربع مئة بغل، منها أربع مئة زوامل الناصر لدين الله، ومن الدواب الأكرية الراتبية للخدمة ألف بغل، لكل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال. وكان يرد الزهراء من الجير والجص فى كل ثالث من الأيام ألف ومئة حمل، وكان فيها حمامان، واحدة للقصر والثانية للعامة.

وذكر بعض أهل^(١) الخدمة فى الزهراء أنه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلاث مائة ألف دينار، مدة خمسة وعشرين عاماً [التي بقيت من دولة الناصر، من حين ابتدأها، لأنه توفى سنة خمسين]، وحصل جميع الاتفاق فيها، فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال.

قال: وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وعلى ابنا جعفر الإسكندراني. وكان الناصر يصلهم على كل رخمة، صغيرة أو كبيرة بعشرة دنانير.

وقال بعض المؤرخين الأثبات^(٢): كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية، وكان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية، وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية. وأهدى إليه ملك الروم مئة وأربعين سارية، وسائرهما من مقاطع الأندلس: طرّكونة وغيرها؛ فالرخام المجزع من رية، والأبيض من غيرها،

(١) نفح الطيب ٥٦٨/١ والتكملة منه.

(٢) نفح الطيب ٥٦٨/١.

والوردى والأخضر من إفريقية، من كنيسة سفاقس . وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل، الغالى القيمة، فجلبه إليه أحمد اليونانى من القسطنطينية، مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء؛ وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش يتماثل الإنسان، فجلبه أحمد من الشام، وقيل من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضاً، وقالوا إنه لا قيمة له، لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان، حنى وصل فى البحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام، فى المجلس المستشرف الشرقى، المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالى، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه صورة غزال، إلى جانبه صورة تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتين حمامة، وشاهين، وطاوس، ودجاجة، وديك، والثانى عشر لم يحضرنى اسمه الآن، وكل هذا من ذهب مرصع بالجواهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها. وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره، وكان يخبز فى أيامه كل يوم برسم حيتان البحيرة ثمان مائة خبزة وقيل أكثر، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه.

وكان الناصر^(١) قد قسم الجباية أثلاثاً، ثلث للجند وثلث للبناء، وثلث مدخر. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف، وأربع مئة ألف، وثمانين ألف [دينار]، ومن الستوق والمستخلص سبع مائة ألف، وخمسة وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان.

(١) نفح الطيب ٥٦٩/١ والتكملة عنه.

وقيل إنَّ مبلغ تحصيل النفقة في بنيان الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية، بكيل قرطبة. وقيل إنَّ مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مدياً وستة أقفزة، من الدراهم المذكورة. واتصل بناء الزهراء أيام الناصر خمساً وعشرين سنة، شطر خلافته، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهرًا. فسبحان الباقي بعد فناء الخلق، لا اله إلا هو.

وكانت قرطبة إذ ذاك أم المدائن، وقاعدة الأندلس، وقرارة الملك، وكان عدد شرطاتها أربعة آلاف وثلاثة مئة، وكانت عدة الدور التي في القصر الكبير أربع مئة دار [ونيفاً وثلاثين]^(١)، وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها، والواجب على أهل المبيت في السور، مئة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار، حاشى دور الوزراء وأكابر الناس والبياض، وعدد أرباضها ثمانية وعشرون، وقيل أحد وعشرون؛ ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمان مئة وسبعة وثلاثون مسجداً؛ وعدد حمامات المبرزة للناس سبع مئة حمام، وقيل ثلاث مئة؛ ووسط الأرباض قصبة قرطبة، التي تختص بالسور دونها. وأما اليتيمة التي كانت في القص في المجلس البديع؛ فإنها كانت من تحف قصر اليونانيين، بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية.

وكان القاضي منذر بن سعيد البلوطي ممن يكرمه الناصر ويجله، وولاه قضاء جماعته؛ وكان أوّل الأسباب في معرفته بالناصر، وزلفاه لديه، أنَّ الناصر لما احتفل بالجلوس لدخول رسل ملك الروم الأعظم صاحب القسطنطينية عليه بقصر قرطبة، الاحتفال الذي اشتهر ذكره في الناس، حسبما تقدم بعض الإلماع به، أحبَّ أن يفوم الخطباء والشعراء بين يديه، لتذكر جلالة

(١) التكملة من نفح الطيب.

مقعدته، وعظيم سلطانه، وتصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة في دولته. وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعة الفقيه الكسباني بالتأهب لذلك وإعداد خطة بين يدي الخليفة وكان يدعى من المقدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رآه بهره هول المقام، وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة بل غشى عليه وسقط إلى الأرض، فقيل لأبي على البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر وهو [حينئذ]^(١) ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة: قم فارقع هذا الوهي فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه محمد ﷺ ثم انقطع به القول، فوقف ساكتا مفكرا في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء قام من ذاته [بدرجة من مراقاته]^(١) فوصل افتتاح أبي على لأول خطبته بكلام عجيب، وفصل مصيب، يسحه سحا كأنما يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو على البغدادي فقال:

أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه والصلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقام، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإنني قمت من مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليّ معشر الملأ بأسماعكم والقنوا عني بأفئدتكم، إنَّ من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإنَّ الجليل تعالى في سمائه، تقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى ﷺ وعلى نبينا وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله عز وجل عندهم وفيه وفي رسول الله

(١) التكملة من نفع الطيب.

ﷺ أسوة حسنة، وإنى أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافية لكم بخلافة أمير المؤمنين، التى لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال، ونكد العيش والتقتير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد [كنف] (١) العافية بعد استيطان البلاء. أنشدكم بالله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها، ألم تكن البلاد خرابا فعمرها، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافية جمع كلمتكم بعد افتراقا بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدا على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها، ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره [بالقوة] (١) والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهى محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة. وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملا للنصب، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حداثها، ولم يبق لها غارب إلا جبهه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم

(١) التكملة من نفع الطيب.

على أعدائه أعوانا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم، بخلافته أبواب [الخيرات و]^(١) البركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ﴿... لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا... (٤٤)﴾ [الأنفال] لن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر وما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية دليلها قائم، وجفنها غير نائم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ... (٥٥)﴾ [النور] الآية. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم في خلافة أمير المؤمنين، أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس حالا، وأنعمهم بالا، وأعزهم قرارا، وأمنعهم دارا، وأكثفهم جمعا، وأجملهم صنعا، لا تهاجون ولا تزدادون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتمكم، وابن عم نبيكم ﷺ فإن من نزع يدا من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها [والتمسك بعروتها]^(٢)، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدمماء، وأن يقوم تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار

(١) التكملة من نفع الطيب.

(٢) التكملة من نفع الطيب.

واطمأنت بكم الدار فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (٥٩) [النساء] الآية. وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين، الساعين فى شق عصاكم، وتفريق ملاكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين دعوة نبيكم ﷺ وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولى هذا وأختتم بالحمد لله رب العالمين واستغفر الله الغفور الرحيم، فإنه خير الغافرين.

فخرج الناس يتحدثون عن حسن مقام منذر وثبات جنانه، وبلاغة لسانه. وكان الخليفة الناصر لدين الله أشدهم تعجبا منه فأقبل على ولى عهده ابنه الحكم يسأله عنه، ولم يكن يثبت معرفة عينه، وقد سمع باسمه فقال له الحكم: هو منذر بن سعد البلوطى. فقال: والله لقد أحسن ما شاء فلئن كان حبر خطبته هذه وأعداها مخافة أن يدور ما دار، فيتلافى الوهى، فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته، إنه لأعجب وأغرب، فكان سبب اتصاله به، واستعماله له.

وذكر ابن أصبغ الهمدانى عن منذر القاضى أنه خطب يوما وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال:

حتى متى وإلى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿... إِنَّ هِيَ إِلَّا فَتْنَتُكَ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ...﴾ (١٥٥) [الأعراف] الآية. اللهم فرغنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تحرمنى وأنا أسألك، ولا تعذبنى وأنا استغفرك، يا أرحم الراحمين قال:

وكان الخليفة الناصر^(١) لدين الله كَلَفًا بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك، وعزة السلطان، فأفضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابنتى مدينة الزهراء، البناء الذى شاع ذكره، واستفرغ وسعه فى تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، فأراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكير بالإنباء والرجوع، فأدخل فى خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء]. ولا تقولوا: «سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين». «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى» وهى دار القرار ومكان الجزاء.

ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته، والإسراف فى الإنفاق [عليه]^(٢) فجرى طلقا، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ... (١٠٩)﴾ [التوبة] الآية؛ وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير من فجأته، والدعاء إلى الزهد فى هذه الدار الفانية، والحض على اعتزالها، والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللذات، ونهى النفس عن اتباع هواها، فأسهب فى ذلك كله، وأضاف إليه آى القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكلة، حتى اذكر من حضر من الناس وخضعوا ورقوا، واعترفوا وبكوا، ودعوا، وأعلنوا التضرع إلى الله

(١) نفح الطيب ٥٧٠ / ١.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

والتوبة، والابتهاال فى المغفرة، وأخذ خليفهم من ذلك بأوفر حظ وقد علم أنه المقصود، فبكى وندم على ما سلف له [من فرطه]^(١) واستعاذ بالله من سخطه، إلا أنه وجد على المنذر بن سعيد لغلظ ما تقرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال: والله قد تعمدين منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، فأسرف علىّ، وأفرط فى تقريعى، ولم يحسن السياسة فى وعظى، فزعزع قلبى، وكاد بعصاه يقرعنى، واستشاط غيظا عليه، فأقسم إلا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء، وقال له الحكم: وما الذى يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه إذ كرهته؟ فزجره وانتهره وقال له: أمثل منذر بن سعيد فى خير وفضله وعلمه - لا أم لك - يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، [سالكة غير القصد]^(٢)؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحيى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى الصلاة الجمعة شفيعا مثل منذر، فى ورعه وصدقه، ولكنه قد أخرجنى فأقسمت، ولوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى.

وقحط الناس آخر مدة الناصر، فأمر القاضى المذكور منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك، وصام بين يديه أياما [ثلاثة] تنفلا وإنابة ورهبة، فاجتمع له الناس فى مصلى الربض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى فى جمع عظيم، وصعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

من القصر، ليشارف الناس ويشاركهم فى الخروج إلى الله تعالى، والضرعة له، فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس، وغصت بهم ساحة المصلى، ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبئا متخشعا، وقام ليخطب، فلما رأى بدار الناس إلى ارتقابه واستكانتهم من خيفة الله، وإخباتهم له، وابتهاهم إليه، رقت نفسه، وغلبته عيناه، فاستعبر وبكى حيناً، ثم افتتح خطبته بأن قال:

يا أيها الناس، سلام عليكم ثم سكت، ووقف شبيه الحصر، ولم يك من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض، لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تالياً قوله تعالى: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام] استغفروا ربكم إنه كان غفاراً واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وتزلفوا بالأعمال الصالحات لديه.

قال الحاكى: فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، ومضى على تمام خطبته، ففرع النفوس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكريه، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر، روى الثرى، وطرد المحل، وسكن الأزل، والله لطيف بعباده.

وكان له فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب، ومن أن قال وقد سرح طرفه فى ملأ الناس، عندما شخصوا إليه بأبصارهم فهتف بهم كالمنادى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وكررها [عليهم]^(١)، مشيراً بيده فى نواحيهم: ﴿... أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥] إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [١٦] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [١٧]﴾ [فاطر]. فاشتد وجد الناس، وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى فى خطبته.

(١) التكملة من نفح الطيب.

قال القاضي أبو الحسن^(١): ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر، في إنكاره عليه الإسراف في البناء، أن الناصر اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية، التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء، قراميد مغشاة ذهباً وفضة، أنفق عليها مالا جسيماً، وقرمده سقفها به، وجعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها، وجلس في إثر تمامها يوماً لأهل مملكته، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك: هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم وسره. فبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه، من ذكر السقف المذهب، واقتداره على ابتداعه، فأقبلت دموع القاضي تتحدر على لحيته وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين. قال: فافعل عبد الرحمن لقوله وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلتني منزلتهم. فقال له: نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. فوجم الخليفة وأطرق ملياً ودموعه تتساقط خشوعاً لله سبحانه. ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك

(١) نفح الطيب ٥٧٣/١.

خيرا وعن الدين والمسلمين أجمل الجزاء، وكَثُرَ في الناس أمثالك فالذى قلت هو الحق. وقام عن مجلسه ذلك [وهو يستغفر الله تعالى]^(١)، وأمر بنقض سقف القبية وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها. انتهى.

وحكى غير واحد أنه وجد بخط الناصر رحمه الله: أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا. وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما.

فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأولائها. هذا الخليفة الناصر حلف السعود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما، فسبحان ذى العزة القائمة، والمملكة الدائمة، تبارك اسمه تعالى لا اله إلا هو.

وحكى أنه - أعنى الناصر^(٢) - لما أعذر لأولاد ابنه أبى مروان الأكبر عبيد الله، اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون، ومن يليهم من العلماء والعدول، ووجوه الناس، فتخلف من بينهم الفقيه المشاور أبو إبراهيم المذكور الذكر فى كتب النوازل والأحكام، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته، فساء ذلك الخليفة الناصر ووجد على أبى إبراهيم، وأمر ابنه ولى العهد الحكم بالكتاب إليه، والتفنيذ له، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها^(٣):

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٣٧٦/١.

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاك، وسددك ورعاك، لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى أبقاه الله الأولياء الذين يستعد بهم، وجدك متقدما فى الولاية متأخرا عن الصلة، على أن قد أُنذرتك أبقاه الله، خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده، لا أعدمه الله توالى المسرة، ثم أُنذرت من قبل إبلاغا فى التكرمة، فكان على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليه فيه المَعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه، فأعيت عليك عنك الحجة. فعرفنى أكرمك الله ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذى سُرَّ به ورغب المشاركة فيه [لنعرِّفه]^(١)، أبقاه الله بذلك، فتسكن نفسه العزيزة إليه، إن شاء الله تعالى».

فأجابه أبوه إبراهيم:

«سلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قرأت أبقى الله سيدى، هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقفى لنفسى، إنّما كان لأمر المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه، لعلمى بمذهبه، ولسكونى إلى تقواه واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم، فإنهم كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها، ولا بما يغض منها، ويترك إلى تنقصها، فيستعدون بها لدينهم ويتزينون^(٢) بها عند رعاياهم، ومن يفد عليهم من قصادهم، فلهذا تخلفت، ولعلمى بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى.

قال فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبى إبراهيم إسحاق

(١) التكملة من نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦.

(٢) فى سائر الأصول: «ويتزيّنون» والمثبت من نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٧.

أعجبه واستحسن اعتذاره، وزال ما بنفسه عليه. وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم، وحق لهما أن يعظماه.

وقد حكى الفقيه أبو القاسم مفرج بن محمد بن مفرج^(١) قال: كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم رحمه الله فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية، فإني لعنده في بعض الأيام في مجلسه، بالمسجد المنسوب لأبي عثمان، الذي كان يصلى فيه قرب داره، بجوفى قصر قرطبة، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم، فوقف وسلم وقال له: يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله فإن الأمر خرج فيك، وها هو قاعد ينتظرك، وقد أمرت بإعجالك، فالله الله. فقال له: سمعا وطاعة لأمر المؤمنين ولا عجلة فارجع إليه - وفقه الله - وعرفه عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله عز وجل مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ فهم يقيدونه عنى، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم، فى رضاء الله وطاعته، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلى من هؤلاء المحتسين فى ذات الله، الساعين فى مرضاته، مشيت إليه إن شاء الله تعالى.

ثم إنه أقبل على شأنه، ومضى الخصي يهينم متضاجرا من توقفه، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطيش. فقال له: يا فقيه، أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله فأصغى إليه، وهو يقول [لك]^(٢): جزاك الله خيرا عن الدين، وعن أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين

(١) نفح الطيب ٣٧٧/١.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

وأمتعهم بك، وإذا أنت أَوْعَبْتَ فامضِ إليه راشداً إن شاء الله تعالى، فقد أُمِرْتُ أَنْ أَبْقَى معَكَ حتى يَنْقَضِيَ شغلك، وأذكركَ تَمْضَى معي. فقال له: حسن جميل، ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدة، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي، وباب الصناعة الذي يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط لي وأرفق بي، فإن رأى أمير المؤمنين أيده الله تعالى أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هَوْنٌ على المشي، وودَّعَ جسمي، وأحب أن تعود فتنتهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه وكذلك تعود إليَّ، فإنني أراك فتى سديداً، فكن على الخير معينا.

ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال: يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله، ومنه خرجت إليك، وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك، وقال: افعل راشداً وجلس الخصى جانبا حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مشى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب، وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذاك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه.

قال مفرج: ولقد تعمداً في تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدبر القصر، لنرى الذي تجشم الخليفة له فوجدناه كما وصف الخصى مفتوحاً، قد حفه الخدم والأعوان منزعجين، ما بين كناس وفراش متهيين لانتظار أبي إبراهيم، فاشتد عجبنا لذلك، وطال تحدثنا عنه. انتهى.

هكذا هكذا تكون المعالي طرق الجد غير طرق المزاح

وكان الخليفة الحكم المستنصر^(١) المذكور قام بأعباء الملك أحسن قيام، لما توفى والده الناصر فى يوم الأربعاء لثلاث وقيل لاثنين - ماضين من شهر رمضان من سنة خمسين وثلاث مائة، واستقرت الخلافة به حتى لم يعد من الناصر إلا شخصه، واعتلى سرير الملك ثامن وفاة أبيه يوم الخميس، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده.

وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطرز وغيره من عظمائهم، وتكفلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم [وغيرهم]^(٢)، وأوصل إلى نفسه فى الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء فبايعوه، فلما كملت بيعتهم وبيعة أهل القصر، تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض فى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد الله المتخلف لعلته، بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض أيضاً فى أبى الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى، فمضيا اليهما كل واحد منهما فى قطيع من الجند، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل، للإتيان بغيرهما من الإخوة، وكانوا يومئذ ثمانية، فوافى جميعهم الزهراء فى الليل، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك، وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التى فى السطح الممرد، فأول من

(١) نفح الطيب ٣٧٧/١.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

وصل إليه الإخوة فبايعوه وأنصتوا لصحيفة البيعة، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله إلا عيسى بن فطيس فانه كان يأخذ البيعة على الناس، وقام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة، فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أكابر الفتیان يمينا وشمالا إلى آخر البهو كل منهم على قدره فى المنزلة، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن، قد تقلدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتیان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفین منتظمين فى السطح، وفى الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتیان الصقالبة الخصيان، لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة، صفوف العبيد الفحول شاكين فى الأسلحة الرائقة والعدة الكاملة، وقامت التعبئة فى دار الجند والترتيب من رجالة العبيد، عليهم الجواشن والأقيية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصقلية، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة المزينة، انتظموا صفین إلى آخر الفصل. وعلى باب السدة الأعظم البوابون وأعوانهم، ومن خارج باب السدة فرسان العبيد إلى باب الأقباء، واتصل بهم فرسان الحشم، وطبقات الجند والعبيد والرماة، موكبا إثر موكب، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض إلا الإخوة والوزراء و[أهل]^(١) الخدمة، فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر رحمه الله إلى قصر قرطبة للدفن هنالك فى تربة الخلفاء.

(١) التكملة من نفح الطيب.

وفى ذى الحجة^(١) من سنة خمسين المذكورة تكاثرت بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضى منذر بن سعيد والملا وأخذت عليهم البيعة، ووقعت الشهادات فى نسخها.

وفى آخر صفر^(٢) من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر موليه محمدا وزيدا ابني أفلح الناصرى فى كتيبة من الحشم والخدم لتلقى غالب الناصرى صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أدفونش الخبيث فى الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة، والمنازع لابن عمه المملك قبله شانجه بن ردمير، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته غير طالب إذن، ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه من اعتزام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو إليه، وأخذه فى التأهب له، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله والارتقاء إليه وخرج قبل أمان يعقد له، أو ذمة تعصمه فى عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تكنفهم غالب الناصرى الذى خرج إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفى، فى جيش عظيم كامل التعبئة، وقدموا إلى باب قرطبة فمروا باب قصرها، فلما انتهى أردون إلى ما بين السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله، فأشير إلى ما

(١) نفح الطيب ٣٨٨/١.

(٢) نفح الطيب ٣٨٨/١.

يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر ودعا ثم رد قلنسوته إلى رأسه.

وأمر المستنصر بإنزال أردون فى دار الناعورة، وقد كان تقدم فى فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتبعية الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظرائهم صفا فى المجلس، فيهم القاضى منذر بن سعيد، والحكماء والفقهاء، فأتى محمد بن القاسم بن طمّلس بالملك أردون وأصحابه، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض، وبليّوال من جنسه وفى لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما فدخل بين صفى الترتيب يقرب الطرف فى نظم الصفوف ويحيل النظر فى كثرتها، وتظاهر أسلحتها، ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه وصلبوا على وجوههم وتأملوا ناكسى رءوسهم غاضين من جفونهم، قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء، فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابها حتى انتهوا إلى باب السدة، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام، فترجلوا ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طمّلس، فأنزل فى برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلىة التى

بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضة، وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى، فقعد أردون على الكرسى وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسرا إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير، واستنهض فمضى بين الصفيين المرتبين فى ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو، فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما، ثم نهض خطوات وعاد إلى السجود، ووالى ذلك مرارا إلى أن قُدّم بين يدي الخليفة وأهوى إلى يديه، فناوله إياها وكرر راجعا مقهقرا على عقبه إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه والبهر قد علاه، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين فعله فى تكرير الخنوع، وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين، فوقفوا على رأس ملكهم ووصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده [أمامه وقتا]^(١) كيما يفرخ روعه، فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال: ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته.

فلما ترجم له [كلامه]^(١) إياه تطلق وجه أردون وانحط عن رتبته، فقبل البساط وقال: أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتورك على فضله، القاصد إلى

(١) التكملة من نفح الطيب ج ١ ص ٣٩١.

مجده، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني، من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة.

فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك عن أهل ملتك ما يغبطك وتتعرف به فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاننا.

فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعيا وقال: إنَّ شانجة ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيرا به مني، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته، وأنكرت سيرته، واختارني لمكانه من غير سعي مني - علم الله ذلك - ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا، فتطول عليه رحمه الله، بأن صرفه إلى ملكه، وقوى سلطانه وأعز نصره. ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أسديت إليه وقصر في أداء المفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاي من بعده، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني، وموضع احتكامي، محكما له في نفسى ورجالي ومعاقلي، ومن تحويه من ريعتي، فشتان ما بيننا من قوة الثقة ومطرح الهمة.

فقال الخليفة: قد سمعنا قولك، وفهمنا مغزاك، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية فوق شأنه، ويترادف من إحساننا إليك به أضعاف ما كان من أيينا رضى الله عنه إلى نذك، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا، والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك مما يؤخره عنه، ولا ينقصك مما أئلناه، وسنصرفك مغبوطا إلى بلدك، [ونشد أَوَاخِيَّ مَلِكًا]^(١) ونملكك

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٢.

جميع من انحاش إليك من أمتك، ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك، نقرر به حدّا ما بينك وبين ابن عمك، ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد إلى يدك، وسيرادفك عليك من إفضالنا فوق ما احتسبته. والله على ما نقول وكيل.

فكرر أردون الخضوع، وأسهب في الشكر، وقام للانصراف مقهقرا، لا يولى الخليفة ظهره، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البُهر، وأذهله الروع من هول ما باشره، وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة. فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه، انحط ساجدا إعظاما له، ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بجوفى هذا المجلس، فأجلسوه هناك على وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلما بصر به قام إليه وخضع له وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه فعانقه وجلس معه، فغبطه ووعدته من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره؛ ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التى أمر بها الخليفة، وكانت درّاعة منسوجة بالذهب وبرنسا مثلها، له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجواهر والياقوت، ملأت عين العليج تجلة فخر ساجداً وأعلن بالدعاء؛ ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم؛ فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم. وخر جميعهم خاضعين شاكرين، ثم انطلق الملك [أردون]^(١) وأصحابه وقدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب، عليه سرج حلى، ولجام حلى مفرع، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة، مكان تضييفه وقد أعد له كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون، واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف،

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

وإرغام المعاش، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه، ما أفضوا في التبجح به، والتحدث عنه أياماً.

وكانت للخلفاء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان وإنشادات لأشعار محكمة متان يطول القول في اختيارها.

فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المردى من قصيدة طويلة:

ملك الخليفة آية الإقبال	وسعوده موصولة بنوال ^(١)
فالمسلمون بعزة وبرفعة	والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه	متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتاه آخذا	منه أواصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً	متبرعاً لما يرع بقتال
سينال بالتأميل للملك الرضا	عزاً يعم عداه بالإذلال
لا يوم أعظم للولاة مسرة	وأشده غيظاً على الأقيال
من يوم أردون الذى إقباله	أمل المدى ونهاية الإقبال
ملك الأعاجم كلها ابن ملوكها	والنمائه الأعاجم وال
إن كان جاء ضرورة فلقد أتى	عن عز مملكة وطوع رجال
فالحمد لله المنيل إيماننا	حظ الملوك بقدرة المتعالى
هو يوم حشر الناس إلا أنهم	لم يسألوا فيه عن الأعمال

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٣.

أضحى الفضاء مفعما بجيوشه والأفق أقتم أغبر السربال
لا يهتدى السارى لليل قتامة إلا بضوء صوارم وعوالى
وكان أجسام الكماة تسربت مذ غبرت منه جسوم صلال
وكأنما العقبان عقبان الفلا منقصة لتخطف الضلال
وكان منتصب القنا مهتزة أشطان نازحة بعيدة جال
وكان خيل التجافيف اكتست ناراً توهجها بلا إشعال
وتتبع مثل هذه الأخبار لا آخر له؛ والله المستعان.

وكان القاضى منذر بن سعيد السابق ذكره، سمع بالأندلس من عبيد الله ابن يحيى بن يحيى ونظرائه^(١)، ثم رحل حاجاً سنة ثمان وثلاث مائة، فسمع من عدة أعلام، منهم محمد بن المنذر النيسابورى، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء، المسمى بالإشراف، وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبى العباس بن ولاد، وروى عن أبى جعفر بن النحاس؛ وكان متفتناً فى ضروب العلوم، وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الأصبهاني، المعروف بالظاهرى؛ فكان منذر بن سعيد يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقاتله، ويأخذ به فى نفسه وذويه؛ فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، بالذى استقر عليه العمل فى بلدهم، وحمل عليه السلطان أهل مملكته.

وله تواليف مفيدة؛ منها كتاب أحكام القرآن؛ والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك فى الفقه والكلام والرد على أهل المذاهب؛ وكان خطيباً بليغاً عالماً

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١.

بالجلد، حاذقًا فيه، شديد العارضة حاضر الجواب، عتيده، ثابت الحجة ذا شارة عجيبة، ومنظر جميل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط لهم، وإقبال عليهم؛ وكان مع وقاره التام فيه دعابة مستملحة، وله نوادر مستحسنة، لولا السامة لجلبنا منها طرفًا. وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، ولبت قاضيًا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر، إلى أن توفى رحمه الله، عقب ذى الحجة سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، رحمه الله ورضى عنه. ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة، أعادها الله، جوفى مسجد السيدة الكبرى بقرب داره.

قال القاضى أبو الحسن: كان شيخنا القاضى أبو عبد الله بن عياش الخزرجى يستحسن من كلام القاضى منذر قوله فى التزكية:

اعلم أن العدالة من أشد الأشياء تفاوتًا وتباينًا، ومتى حصلت ذلك عرفت حالة الشهود، لأن بين عدالة أصحاب النبى ﷺ وعدالة التابعين رضى الله عنهم بونًا عظيمًا وتباينًا شديدًا، وبين عدالة أهل زماننا وعدالة أولئك مثل ما بين السماء والأرض؛ وعدالة أهل زماننا على ما هى عليه بعيدة التباين أيضًا. والأصل فى هذا عندى، والله الموفق، أن من كان الخير أغلب عليه من الشر، وكان متنزها عن الكبائر فواجب أن تعمل شهادته، فإن الله تعالى قد أخبرنا بنص الكتاب أن من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية، وقال فى موضع آخر: «فأولئك هم المفلحون»؛ فمن ثقلت موازين حسناته بشيء لم يدخل النار؛ ومن استوت حسناته وسيئاته لم يدخل الجنة فى زمرة الداخلين أولاً، وهم أصحاب الأعراف، فذلك عقوبة لهم، إذ تخلفوا عن أن

تزيد حسناتهم على سيئاتهم؛ فهذا حكم الله في عباده. ونحن إنما كلفنا الحكم بالظاهر، فمن ظهر لنا أنَّ خيرَه أغلب عليه من شره حكمنا له بحكم الله في عباده، ولم نطلب له علم الباطن، ولا كلفه محمد ﷺ فقد ثبت عنه أنه قال «إنَّما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكم له على نحو مما أسمع». فأحكام الدنيا على ما ظهر، وأحكام الآخرة على ما بطن؛ لأن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، ونحن لا نعلم إلا الظاهر؛ ولأهل كل بلد قوم قد تراضى عليهم عامتهم، فبهم تنعقد منكاھهم وبيوعهم، وقد قدموهم في المساجد ولجمعهم وأعيادهم، فالواجب على من استقصى على موضع أن يعمل شهادة أمثالهم وفقهائهم، وأصحاب صلواتهم، وإلا ضاعت حقوق ضعيفهم وقويهم، وبطلت أحكامه. ويجب عليه أن يسأل إن استراب في بعضهم في الظاهر والباطن عنهم، فمن لم يثبت عنده عليه اشتھار في كبيرة، فهو على عدالة ظاهرة، حتى يثبت غير ذلك. انتهى.

قلت: تذكرت هنا ما رأيته بخط الأمام الحافظ سيدى أحمد الونشريشى رحمه الله على ظهر كتاب ابن الخطيب: «مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة»، وقد مدينة فيه ابن الخطيب الباع فى ذم الموثقين، وذكر مثالبهم، ونص ما ألفيته بخط المذكور:

الحمد لله. جامع هذا الكلام المقيد هنا بأول ورقة منه، قد كد نفسه فى شىء لا يعنى الأفاضل، ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بطائل، وأفنى طائفة من نفيس عمره فى التماس مساوى طائفة، بهم تستباح الفروج، وتملك مشيدات الدور والبروج، وجعلهم أضحوكة لذوى الفتك والمجانة،

وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة، سامحه الله وغفر له. قال ذلك وخطه
بيمنى يديه عبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريشى، خار الله
سبحان له، انتهى.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار سبته فنقول:

كان أهل سبته^(١) فى غاية الذكاء والفطنة، والعلم والمعرفة؛ وقد حكى
الشيخ النظار أبو إسحاق الشاطبى فى شرحه على ألفية ابن مالك، عن شيخه
أبى عبد الله الفخار، عن بعض أهل سبته، أن الشيخ أبا عبد الله بن خميس
التلمسانى لما ورد على سبته بقصد الإقراء بها، اجتمع عليه عيون طلبتها؛
فألقوا عليه مسائل من غوامض باب الاشتغال، فحاد عن الجواب، بأن قال
لهم: أنتم عندى كرجل واحد. يعنى أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها
من رجل واحد، وهو ابن أبى الربيع؛ فكأنه إنما يخاطب رجلاً واحداً،
ازدراء بهم. فاستقبله أصغر القوم سناً وعلماً، بأن قال له: إن كنت بالمكان
الذى تزعم، فأجبنى عن هذه المسائل، من باب معرفة علامات الإعراب،
التي أذكرها لك؛ فإن أجبت فيها بالصواب، لم تحظ بذلك فى نفوسنا،
لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من الإدراك والتحصيل، وإن أخطأت فيها لم
يسعك هذا البلد، وهى عشرة:

الأولى: أنتم يا زيدون تغزون.

والثانية: أنتم يا هندات تغزون.

والثالثة: أنتم يا زيدون ويا هندات تغزون.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٥٦.

والرابعة: أنتن يا هندات تخشين .

والخامسة: أنت يا هند تخشين .

والسادسة: أنت يا هند ترمين .

والسابعة: أنتن يا هندات ترمين .

والثامنة: أنتن يا هندات تمحون أو تمحين كيف تقول .

والتاسعة: أنت يا هند تمحين أو تمحون كيف تقول .

والعاشرة: أنتما تمحوان أو تمحيان، كيف تقول .

وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة؟ أو بعضها مبنى وبعضها معرب؟ وهل كلها على وزن واحد أم على أوزان مختلفة؟ علينا السؤال، وعليك التمييز، لنعلم الجواب. فبُهِتَ الشيخ وشغل المحل بأن قال: إنما يسأل عن هذا صغار الولدان. فقال له الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب. فانزعج الشيخ وقال هذا سوء أدب، ونهض منصرفاً، ولم يصبح إلا بمقالة، ومتوجهاً إلى غرناطة، فلم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم، إلى أن مات. تغمده الله برحمته. انتهى.

وأورد هذه الحكاية أيضاً عالم الدنيا، سيدى أبو عبد الله بن مرزوق^(١)، فى شرحه على الألفية لابن مالك، وهو شرح متسع جداً، وقفت منه على بعضه بتلمسان، وكان آخر السفر الأول اسم الإشارة، وذلك السفر أعظم جرماً من جميع شرح المرادى؛ ونص [محل]^(٢) الحاجة منه:

وقد حكى أن بعض طلبة سبته أورد على أبى عبد الله بن خميس عشر

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٥٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

مسائل من هذا النوع، وهى: أنتم يا زيدون تغزون؛ وأنتن يا هندات تغزون؛ وأنتم يا زيدون ويا هندات تغزون، وأنتن يا هندات تخشين؛ وأنت يا هند تخشين؛ وأنت يا هند ترمين، وأنتن يا هندات ترمين، وأنتن يا هندات تمحون أو تمحين كيف تقول. وأنت يا هند تَمَحِينُ أو تَمَحِينُ كيف تقول؛ وأنتما تمحوان أو تمحيان، على لغة من قال محوت كيف تقول؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنية أو معربة أو مختلفة؟ وهل وزنها واحد أو مختلف؟ قالوا: ولم يجب بشيء. قلت: فلعله استسهل أمرها.

فأما المثال الأول فمعرب، ووزنه تَفْعُونَ، إذ أصله تَغْزُونَ كتنظرون، فاستثقلت ضمة الواو، التى هى لام، فحذفت، ثم حذفت الواو أيضاً، لالتقاء ساكنة مع واو الضمير، وكانت أولى بالحذف، لأن واو الضمير فاعل، ولغير ذلك مما تقدم بعضه.

وأما الثانى فمبنى، ووزنه تَفْعَلْنَ، كَتَخْرُجْنَ.

وأما الثالث فكالأول إعراباً ووزناً، لأن فيه تغليب المذكر على المؤنث.

وأما الرابع فمبنى، ووزنه تَفْعَلْنَ، مثل تَفْرَحَنَّ لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل، لاستناده إلى نون جماعة النسوة، ردت الياء إلى أصلها، لأنها إنما قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، والآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون.

وأما الخامس فمعرب، ووزنه تَفْعَيْنَ، وأصله تَخْشَيْنَ، كَتَفْرَحَيْنَ، فقبلت الياء ألفاً، لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقاء ساكنة مع ياء الضمير، وتركت فتحة الشين دالة على الألف.

وأما السادس فمعرب، ووزنه تَفْعِلِينَ. وأصله تَرْمِيْنَ، كتضريين، حذفت كسرة الياء لاستثقالها، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير.

وأما السابع فمبنى، ووزنه تفعلن كتضربن.

وأما الثامن والتاسع، فمضارع مَحَى ورد بالأوزان الثلاثة، فمن قال يمحو [قال فى المضارع من جماعة النسوة: تمحون، مثله من غزاء ووزنا، ومن قال يمحى^(١)] قال فيه: تمحين كترمين، بناء ووزنا. ومن قال يمحى قال فيه تَمْحِين كَتَخْشَيْن، بناء ووزنا. ويقال فى المضارع الواحدة على اللغة الأولى تمحين كتدعين: إعرابا ووزنا وتصريفا. وقد تقدم فى كلام المصنف. وعلى الثانية، كما يقال لها من رمى إعراباً ووزنا وتصريفاً. وعلى الثالثة كما يقال لها من تخشى أيضاً، وقد تقدما.

وليس ما وقع فى السؤال كما نقل خط بعض الشارحين أنه يقال فيها «تَمَحُون» كَتَفَرَحْنَ بشيء.

وأمر التثنية ظاهر. انتهى بحروفه.

قلت: وقد جزم واحد بأن ابن خميس لا يجهل مثل هذه المبادئ، إذ هو من أكابر الأعلام العارفين بالنحو واللغة وغيرهما من أنواع العلوم؛ وقد نقل بعض من له خبرة بأحواله أنه كان يحسن علم السيمياء والله اعلم.

وهو محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن عمر بن محمد الحجرى بفتح الحاء وسكون الميم، الرعينى، نسبة إلى حجر ذى رعين. وهو من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس.

(١) ما بين الحاصرتين من نفع الطيب.

قال ابن الخطيب فى «عائد الصلة»^(١): كان رحمة الله نسيج وحده زهدا وانقباضاً وبأوا وهمة، حسن الشيعة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيداً عن الرياء والهوى، عاملاً على السياحة والعزلة، عارفاً بالمعارف القديمة، مضطرباً بتفاريق النحل، قائماً على العربية والأصليين، طبقة الوقت فى الشعر، وفحل الأوان فى المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب.

ثم ذكر ابن الخطيب من أحواله جملة، إلى أن قال: وبلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنه يروم السفر، فشق ذلك عليه، وكلفه تحريك الحديث بحضرته، وجرى ذلك. فقال الشيخ: أنا كالدّم بطبعى أتحرك فى كل ربيع. انتهى.

وقال ابن خاتمة فى حقه، بعد أن وصفه بالشاعر المجيد: إنه رحل من تلمسان بلده إلى سبتة، فأقام بها مدة، ومدح رؤساءها من بنى العزفى، ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فاحتل بحضرة غرناطة فى أواخر سنة ثلاث وسبع مائة، فى جوار الوزير أبى عبد الله بن الحكيم، فتقارضا لحلّ المجد، وتباريا فى الرّفد والحمد، فأدنى له ذو الوزارتين أخلاف بره وإكرامه، وخلع عليه ابن خميس أثواب نثره ونظامه، فله فيه القصائد التى حليت بها لبات الآفاق، وتنفست عنها صدور الرفاق.

وكان رحمه الله من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، يصرف العويص، ويرتكب مستصعبات القوافى، ويطير فى القريض مطار ذوى القوادم الباسقة والخوافى، حافظاً لأشعار العرب وأخبارها، له مشاركة فى العقلية،

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٠. وفى الأصل: «أدبا» مكان «بأوا» وهى رواية النفح.

واستشرف على الطلب؛ وعقد لإقراء العربية بحضرة غرناطة، وكان ما يتحلله من العلم فوق ما يحصله. ومال بأخرة إلى التصوف والتجوال، والتحلى بحسن السمات، وعدم الاسترسال، بعد طي بساط ما فرط له في بلده من الأحوال، وكان صنع اليدين. حدثني بعض من لقيه من الشيوخ أنه صنع قدحا من الشمع على أبدع ما يكون، في شكله، ولطافة جوهره، وإتقان صنعته، وكتب بدائرة شفته:

وما كنت إلا زهرة في حديقة تبسم عنى ضاحكات الكمائم^(١)
فقلبت من طور لطور فهأنا أقبل أفواه الملوك الأعظم
وأهداه خدمة للوزير أبي عبد الله بن الحكيم.

وأنشدنا شيخنا أبو البركات ابن الحاج^(٢) وحكى لنا، قال:

أنشدني أبو عبد الله بن خميس وحكى لي، قال: لما وقفت على الجزء
الذي ألفه ابن سبعين، يعنى أبا محمد عبد الحق بن أحمد بن إبراهيم بن
نصر، وهو الذي سماه بالفقيرية، كتبت على ظهره:

الفقر عندي لفظ دق معناه من رame من ذوى الغايات عناه^(٣)
كم من غبى بعيد عن تصويره أراد كشف معماه فعماه

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن ليون غير مرة^(٤)، قال: سمعت أبا
عبد الله بن خميس ينشد، وكان يحسب أنهما له، ويقال إنهما لابن الرومى:

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٠.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٠.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٠.

(٤) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦١.

رب قوم فى منازلهم عرر صاروا بها غررا
ستر الإحسان ما بهم سترى لو زال ما ستر
ثم قال ابن خاتمة بعد كلام^(١): وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضى
أبو عبد الله بن إبراهيم الحضرمى فى جزء سماه: «الدر النفيس من شعر ابن
خميس»، وعرف به صدر الجزء. وقد نقلت منه هنا:

وقدم أبو عبد الله بن خميس ألمرية سنة ست وسبع مائة، فنزل بها فى
كنف القائد الحاضر بها حينئذ، أبى الحسن بن كماشة، من خدام الوزير أبى
عبد الله ابن الحكيم، فوسع له فى الإيثار والمبرة، وبسط له وجه الكرامة طلق
الأسرة؛ وبها قال فى مدح الوزير أبى عبد الله بن الحكيم قصيدته التى أولها:

العشى تعيا والنوابغ عن شكر أنعمك السوابغ
ووجه بها إليه من ألمرية. ومنها:

ودسائع ابن كماشة مع كل بازغمة وبازغ
تأتى بما تهوى النغما نع من شهييات اللغالبغ
ويقال إن الوزير أبا عبد الله بن الحكيم اقترح عليه أن ينظم له قصيدة
هائية فابتدأ منها مطلعها وهو قوله:

لمن المنازل لا تجيب صداها محيت معالمها وصم صدها

وذلك فى أواخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبع مئة. ثم لم يزد على
ذلك إلى أن توفى، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر، وقد أشار معناه، وقد
أذن أولاه بحضور أخراه، فكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا، ضحوة يوم

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦١.

الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبع مائة وهو ابن نيف وستين سنة، وذلك يوم مقتل مخدمه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، أصابه قاتله لحقه على مخدمه. ويقال إنه لما هم به قاتله قال له: أنا دخيل رسول الله ﷺ فلم يلتفت إليه وجعل يجهز عليه فقال له: لم لم تقبل الدخيل بيني وبينك؟ فكان آخر ما سمع منه: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...﴾ (٢٨) [غافر] ثم إنه استفاض بذلك من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه، فكان يصح ويستغيث: ابن خميس يطلبني ابن خميس يعذبني ابن خميس يقتلني. وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال.

نعوذ بالله من المورطات، ومواقعات العثرات. انتهى كلام ابن خاتمة.
وحكى غيره أن تلك القصيدة نظمه ليهني بها ابن الحكيم في ذلك العيد الذي قتل فيه، فلم يقدر على زيادة شيء، فلما قتل كتب بعضهم بعد قوله:
* لمن المنازل لا تحيب هواها *

لابن الحكيم.

ونقل غير واحد في شأن قاتله خلاف ما حكاه ابن خاتمة. والله أعلم.
ومن مشهور نظمه رحمه الله قصيدته التي أولها:
مشوق زار ربك يا أماما محأ آثار دمنتها الشأما
تبع ريقه الطل ارتشأفا فلا نفعت ولا نفعت أواما
وهى طويلة ولكنها من غرر القصائد يمدح بها أبا سعيد بن عامر ويذكر
الوشحة الواقعة بينه وبين أبي بكر بن خطاب.

ومن بديع شعره قوله مطلع قصيدة^(١):

تراجع من دنياك ما أنت تارك ونسألها العتبي وها هي فارك
تؤمل بعد الترك رجع ودادها وشر وداد ما تود الترائك
حلالك منها ما حلالك في الصبا فأنت على حلوائه متهاالك
تظاهر بالسلولان عنها تجملا فقلبك محزون وثرعك ضاحك
تنزهت عنها نخوة لا زهادة وشعر عذارى أسود اللون حالك
وهي من القصائد الطنانية، وتركها لطولها؛ وفي آخرها يقول:

فلا تدعونَ غيري لدفع ملامة إذا ما دهى من حادث الدهر داهك
فما إن لذاك الصوت غيري سامع وما إن لبیت المجد بعدى سامك
يغص ويشجى نهشل ومجاشع بما أورثتنى حمير والسكاسك
تفارقنى الروح التى لست غيرها وطيب ثنائى لاصق بى صائك
وماذا عسى ترجو لداتى وأرتجى وقد شمطت منى اللحن والأفانك
يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى إذا عاد للدنيا عقيل ومالك
ومما اشتهر من نظمه قوله^(٣):

أرق عـيـنـى بـارق من أثال كأنه فى جنح ليلى ذبال
أثار شوقا من صميم الحشى وعبرتى فى صحن خدى أسال

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٢.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٢.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٣.

حكى فؤادى قلقا واشتعال
جوانح تلفح نيرانها
قولوا وشاة الحب ما شئتم
أعذر لوامى ولا عذر لى
قم نطرد الهم بمشموالة
وعاطها صفراء ذمية
كالمسك ريحا واللمى مطعما
عتقها فى الدن خمارها
لا تثقب المصباح لا واسقنى
فالعيش نوم والردى يقظة
خذها على تنعيم مسطارها
فى روضة باكر وسميها
كأن فأر المسك مفتوقة
من كف ساجى الطرف ألحظه
من عذارى والكل لى عاذر
من خلبي الوعد كذابه
كأنه الدهر وأى امرئ
أما ترانى آخذا ناقضا
وجفن عيني أرقا وانهمال
وأدمع تنهل مثل العزال
ما لذة الحب سوى أن يقال
فزلة العالم ما إن تقال
تقصر الليل إذا الليل طال
تمنعها الذمة من أن تنال
والتبر لونا والهوا فى اعتدال
والبكر لا تعرف غير الحجال
على سنى البرق وضوء الهلال
والمرء ما بينهما كالخيال
بين خوايىها وبين الدوال
أخمل دارين وأنسى أوال
فيها إذا هبت الصبا أو شمال
مفوقات أبداً للنضال
من حسن الوجه قبيح الفعال
ليان لا يعرف غير المطال
يبقى على الدهر إذا الدهر حال
عليه ما سوغنى من محال

ولم أكن قط له عائباً كمثل ما عابته فبلى رجال
يأبى ثراء المال علمى وهل يجمع الضدان علم ومال
وتأنف الأرض مقامى بها حتى تهادانى ظهور الرحال
لولا بنى زيان ما لَدَّ لى الـ عيش ولا هانت على الليال
هم خوفوا الدهر وهم خففوا على بنى الدنيا خطاه الثقال
ألفيت من عامرهم سيدا غمر رداء الحمد جم النوال
وكعبة للجود منصوبة يسعى إليها الناس فى كل حال
خذهأ أبا زيان من شاعر مستعذب النزعة عذب المقال
يلتقط الألفاظ لقط النوى^(١) وينظم الآلاء نظم الآل
مجاريا مهيار فى قوله «ما كنت لولا طمعى فى الخيال»
ومطلع قصيدة مهيار التى عارضها ابن خميس هو قوله^(٢):

ما كنت لولا طمعى فى الخيال أنشد ليلى بين طول الليال
وربما يهجس فى خاطر من يرى وصف هؤلاء الأئمة للخمر وغيرها،
أنَّ ذلك منهم على حقيقته، حاشاهم من ذلك، وإنما مقصدهم بذلك خلاف
ما يتوهم، فلا يساء بهم الظن، فإن العذر لهم فى مثل ذلك بَيِّن، واعتقاد
براءتهم من هذا الشين مُتَعَيِّن، ويرحم الله شيخ الشيوخ ولى الله الربانى
الشهير البركات سيدى أبا مدين شعبيا أفاض الله علينا من أنواره إذ يقول على
ما نسب له بعض الأئمة:

(١) رواية الأصل: «يلتفظ» (لفظ) بالفاء والطاء والمثبت رواية النفح ٥/ ٣٦٤.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

بكت السحاب فأضحكت لبكائها زهر الرياض وفاضت الأنهار^(١)
 وقد أقبلت شمس النهار بحلة خضراء وفي أسرارها أسرار
 وأتى الربيع بخيله وجنوده فتمتعت في حسنه الأبصار
 والورد نادى بالورود إلى الجنى فتسابق الأطيّار والأشجار
 والكأس ترقص والعقار تشعشت والجو يضحك والحبيب يزار
 والعود للغيد الحسان مجاوب والطار أخفى صوته المزمّار
 لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مزمّارنا التسبيح والأذكار
 وشرابنا من لطفه وغناؤنا نعم الحبيب الواحد القهار
 والعود عادات الجميل وكاسنا كاس الكياسة والعقار وقار
 فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل الممات فدهركم غدار
 والله أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفار
 ثم الصلاة على الشفيع المصلّى ما رنمت بلغاتها الأطيّار
 وقد تذكّرت بلامية ابن خميس المذكورة قصيدة على رويها ووزنها أولها
 قوله:

ما حال من فارق ذاك الجمال وذاق طعم الهجر بعد الوصال
 وهى من نظم الشيخ العارف الصالح سيدى إبراهيم التازى رضى الله
 عنه رأيت أن أذكرها هنا كفارة لما يتوهمه السامع فى لامية ابن خميس ، وقد
 كنت رأيت بتلمسان تخميسا لبعض الأكابر على قصيدة سيدى إبراهيم هذه،

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٣ .

وأنشدته الشيخ مولانا العم شيخ الإسلام، سيدى سعيد بن أحمد المقرئ رضى
الله عنه فانفعل لذلك غاية واهتز وهأنا أذكر القصيدة ضمن التخميس وهو:

بدت كغصن ناعم فى اعتدال

وأبدلت وصلى بصاد ودال

قلت كصب عاشق حيث قال

ما حال من فارق ذاك الجمال وذاق طعم الهجر بعد الوصال

صب صبا من وجد لحظ الرشا

من حبه عن لبه يتتشى

وسره بدمعى قد فشا

والعقل منه ذاب والحشى ملتهب والجسم يحكى الخيال

شأنى بها ما دمت فى رقتها

راق ولا رغبة فى عتقها

دمت لها عبدا ومن حقها

أبيت أرعى النجم فى أفقها وليل أهل الحب رحب طوال

جاء بها التنصيص فى جملتى

أقضى بها فرضى وهى ملتى

نأت بصبرى صحت واخجلتنى

والدمع كالمدرار من مقلتى يجرى على الوجنة يا للرجال

ما عمرت لى بالهوى راحة
من بعدها ولا خلت ساحة
من حسننها إذا هى وضاحة
وليس لى عيش ولا راحة والحال يغنى ذا الحجا عن سؤال
الوصل قد أبدى لنا حسنه
والبعد قد أبدى لنا شينه
قولوا لمن ليل الهوى جَنَّهُ
يا قـبـح الله النوى إنه قتل بلا سيف وداء عضال
إلفى مـذ حل بقلـبى قـضى
أعاد الله لنا بالرضا
بطالع السعد ونور أضـا
ويا رعى الله زمانا مـضى بالأنس فى وارف تلك الظلال
لله أطلال بها خـيـمت
فكم بها من أمة أحرمت
ويا رعى الله بها ما حـمت
ظلال تيماء التى تيمت قلبى وملت مهجتى فى نكال
نلت لذىذ الوصال فى تربها
لو دام ما غـيـبت عن قربها

فكيف لا أعلن من حبها
آها لها من لى بأنس بها خوف الوجى ما بين تلك الجبال
تلك الربوع فاز من حلها
وعقدة الإبعاد قد حلها
من لى بقرب أجتنى وصلها
ألزمها أبث أمرى لها أنعم الطرف بذاك الجمال
ما فاز إلا من غدا حلها
ومن أتاها قاصدا أهلها
يا عاشقين استعطفوا دلها
لله ما أحسن خالاً لها تقبيله المحذور عين الحلال
نفسى فدا من حل فى ركبها
ومرغ الخدين فى تربها
ونال ظل الأمن فى حزبها
وما ألد العيش فى قربها فى ربه بذل العطا والنوال
يأهل ذاك المنصب المولوى
عن حبكم قلبى ما يرعوى
لأنى من مائكم أرتوى
يا سادتى يا صفوتى يا ذوى برى وشكرى يا كرام الفعال

كم بت ليلي بكم ساهرا
سامرت فيه كوكبا زاهرا
وصرت من شوقى لكم ذاكرا
كان سرورى بكم وافرا وبدر سعدى مشرقا فى كمال
فهأنا اليوم أعانى العنى
وظل أمنى كان فى المنحنى
وبدر سعدى ناظم شملنا
فانخسف البدر وراح الهنا ما كان ذا يخطر منى ببال
يا من بدا قلبى بهم مغرما
من أجل خود حسنهما قد سما
من لى بها أرشف ذاك اللمى
يا جيرة الحى وأهل الحمى أنتم منى القلب على كل حال
كانت بكم فى الهوى نزهة
فصرت أبكى إذ بدت وحشة
وهأنا لم ترق لى دمة
وليس بى صبر ولا سلوة عنكم ولو شط المدى واستطال
يا من بهم قلبى غدا مولعا
وحق من طاف ومن قد سعى

ما العبد إلا صادق ما ادعى

فارعوا ذمامي واجهدوا في الدعا للمدنف المضنى عسى ذو الجلال

متى أرى ركبي بهم قافلا

وربعكم أضحى به أهلا

فالله أرجو داعيًّا سائلا

أن يجمع الشمل بكم عاجلا فى ذلك المغنى العديم المثال

ومن نظم ابن خميس التلمساني المذكور قوله:

نظرت إليك بمثل عيني جوذر وتبسمت عن مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدرد أو كالبرق أو كالطلع أو كالأقحوان مؤشر

تجري عليه من لماها نطفة بل خمرة لكنها لم تعصر

لو لم يكن خمراً سلاقاً ريقها تترى وتلعب بالنهى لم تحظر

وكذلك ساجى جفنها لو لم يكن فيه مهند لحظها لم يحذر

لو عجت طرفك فى حديقة خدها وأمنت سطوة صدها المتنمر

لرتعت من ذاك الحمى فى جنة وكرعت من ذاك اللمى فى كوثر

طرقتك وهناً والنجوم كأنها حصباء در فى بساط أخضر

والركب بين مصعدٍ ومصوبٍ والنوم بين مسكنٍ ومنفر

بيضا إذا اعتكرت ذوائب شعرها سفرت فأزرت بالصبح المسفر

سرحت غلائلها فقلت سبيكة من فضة أو دمية من مرممر

منحتك ما منعتك يقظاناً فلم
وكأما خاف بغاة وشاتها
ويجزع ذاك المنحنى إدمانةً
وتحية جاءتك فى طى الصبا
جرت على واديك فضل ردائها
هاجت بلابل نازحٍ عن إلفه
وإذا نسيت لىالى العهد التى
رحنا تغنينا ونرشف ثغرها
والروض بين مفضض ومعسجدٍ
وقد تذكرت بهذه القصيدة قول الأديب ابن مرج الكحل^(١):

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر
ولتغتبقتها قهوة ذهبيةً
وعشيةٍ قد كنت أقرب وقتها
نلنا بها آمالنا فى روضةٍ
والدهر من قدم يسفه رأيه
والورق تشدو والأراكة تنشئ
والروض بين مفضضٍ ومعسجدٍ
بين الفرات وبين شط الكوثر
من راحتى أحوى المرافف أحور
سمحت بها الأيام بعد تعذر
تهدى لناشقتها شميم العنبر
فيما مضى منه بغير تكدر
والشمس ترفل فى قميص أصفر
والزهر بين مدهم ومدنر

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٥١ .

والنهر مرقوم الأباطح والربا بمصنل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شطه سيف يسل على بساط أخضر
وكأنما ذاك الحباب فرنده مهما طفا فى صفحه كالجوهر
وكأنه وجهاته محفوفة بالآس والنعمان خد معذر
نهر يهيم بحسنه من لم يهم ويجيد فيه الشعر من لم يشعر
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها إلا لفرقة حسن ذاك المنظر
وما أحسن قول ابن الكحل المذكور^(١):

وأوا بالجزع برقًا فاستهاموا ونام العاذلون ولم يناموا
وعندى من مرأشفها حديث يخبر أن ريقها مدام
وفى أجفانها السكرى دليل وما ذقنا ولا زعم الهمام
تعالى الله ما أجرى دموعى إذا عرضت لمقلتي الخيام
وأشجانى إذا لاحت بروق وأطربنى إذا غنى الحمام

وكان السلطان أبو عنان المرىنى رحمه الله كثير الاعتناء بنظم الشيخ أبى عبد الله بن خميس وحفظه وروايته . قال رحمه الله : أنشدنى بلفظه الشيخ الفقيه القاضى المحدث ، الراوية العالم المدرس ، خطيب حضرتنا العلية ، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الأجل ، الصالح المبارك الراوية ، المرحوم أبى الحسن ابن عبد الرزاق وذلك بقصر المصارة يمينه الله فى يوم الاثنين خامس عشر من شهر المحرم المبارك مفتح عام خمسة وخمسين وسبع مئة ؛ قال أنشدنا شيخ

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٥٣ .

الأدباء، وفحل الشعراء، أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحميري، ثم الحجري: حجر ذى رعين، لنفسه، رحمه الله تعالى:

أنبت ولكن بعد طول عتاب وفرط لجاج ضاع فيه شبابي
وما زلت والعليا تُعنى غريمها أعلل نفسي دائماً بمتاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه يلذ طعامي أو يسوغ شرابي
خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادى بلمع سراب
تقول هو الشهد المشور جهالةً وما هو إلا السم شيب بصاب
وما صحب الدنيا كبكرٍ وتغلبٍ ولا ككليب رىء فحل ضراب
إذا كعت الأبطال عنها تقدموا أعاريب غراء فى متون عراب
وإن ناب خطب أو تفاقم معضل تلقاه منهم كل أصيد ناب
ترأت لجالسٍ مخيلة فرصة تأت له فى جيئة وذهاب
فجاء بها شوهاء تنذر قومها بتشديد أرجامٍ وهدم قباب
وكان رغاء السقب فى قوم صالح حديثاً فأنساه رغاء سراب
فما تسمع الأذان فى عرصاتهم سوى نوح ثكلى أو نعيب غراب
وسل عروة الرحال عن صدق بأسه وعن بيته فى جعفر بن كلاب
وكانت على الأملاك منه وفادةٌ إذا آب منها آب خير مآب
يجير على الحيين قيس وخندف بفضل يسار أو بفصل خطاب

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٦.

زعامة مرجو النوال مؤمل
 فمر يزجيه حواسر ظلعا
 إلى فذك والموت أقرب غاية
 تبرض صفو العيش حتى استشفه
 فأصبح فى تلك المعاطف نهزة
 وما سمه عند النضال بأهزع
 ولكنها الدنيا تكرر على الفتى
 وعادتها ألا توسط عندها
 فلا ترج من دنياء ودأ وإن يكن
 ومثال الحزم كل الحزم إلا اجتنبها
 أبيت لها ما دام شخصى أن ترى
 فكم عطلت من أربع وملاعب
 وكم عفرت حاسر ومدجج
 إليك بنى الدنا نصيحة مشفق
 طويل مراس الدهر جزلٍ ممحك
 تأتت له الأوهام أدهم سابقا
 ولا تحسبوا أنى على الدهر عاتب
 وما أسفى إلا شباب خلعتة
 وعزيمة مسموع الدعاء مجيب
 بما حملوها من منى ورغاب
 وهذا المنى يأتى بكل عجاب
 فداف له البرض قشب حباب
 لنهب ضباع أو لنهش ذئاب
 ولا سيفه عند المصاع بنابى
 وإن كان منها فى أعز نصاب
 فلإما سماء أو تخوم تراب
 فما هو إلا مثل ظل سحاب
 فأشقى الورى من تصطفى وتحابى
 تمر ببابى أو تطور جنابى
 وكم فرقت من أسرة وصحاب
 وكم أئكلت من معصر وكعاب
 عليكم بصير بالأمور نقاب
 عريض مجال الهم جلس ركاب
 وغصت به الأيام أشهب كابى
 فأعظم ما بى منه أيسر مابى
 وشيب أبى إلا نصول خضاب

وعمر مضى لم أحل منه بطائل
 ليالى شيطانى على الغى قادرٌ
 عكسنا قضايانا على حكم عادنا
 على المصطفى المختار أذكى تحينى
 فتلك عتادى أو ثناء أصوغه
 فتلك التى أعتد يوم حسابى
 كدر سحاب أو كدر سخاب
 ومن مشهور نظم ابن خميس رحمه الله تعالى (١):

عجباً لها أيدوق طعم وصالها
 وأنا الفقير إلى تلة ساعة
 كم زاد عن عيني الكرى متألق
 يسمو له بدر الدجى متضاءلاً
 وأين السبيل يجيء يقبس نارها
 يعتادنى فى النوم طيف خيالها
 كم ليلة جاءت به فكأنما
 أسرى فعطّلها وعطل شهبها
 وسواد طرته كجنى ظلامها
 دعنى أشم بالوهم أدنى لمعة
 ما راد طرفى حقيقة خدها
 من ليس يأمل أن يمر ببابها
 منها وتمننى زكاة جمالها
 يبدو ويخفى فى خفى مطالها
 كتضائل الحسنة فى أسمالها
 ليلاً فتمنحنى عقيلة مالها
 فتصينى الحاظها بنبالها
 زفت على ذكاء وقت زوالها
 بأبى شذا المعطار من معطارها
 وبياض غرته كضوء هلالها
 من ثغرها وأشم مسكة خالها
 إلا لفتته بحسن دلالها

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٨.

أنسيب شعري رق مثل نسيمها
 وأنقل أحاديث الهوى وأشرح غريـ
 وإذا مررت برامة فتوق من
 وانصب لغزلها حباله قانص
 وأسل جداولها بفيض دموعها
 أنا من بقية معشر عركتهم
 أكرم بها فئة أريق نجيعها
 حلت مدامة وصلها وحلت لهم
 بلغت بهرمس غاية ما نالها
 وعدت على سقراط سؤرة كأسها
 وسرت إلى فاراب منها نفحة
 ليصوغ من ألحانه في حانها
 وتغلغل في سهر ورد فأسهرت
 فخبأ شهاب الدين لما أشرفت
 ما جن مثل جنونه أحد ولا
 وبدت على الشوذى منها نشوة
 بطلت حقيقته وحالت حاله
 هذى صبابتهم ترق صبابه
 فشمول راحك مثل ريح شمالها
 ب لغاتها واذكر ثقات رجالها
 أطلائها وتمس في أطلالها
 ودع الكرى شرًا لصيد غزالها
 وانضح جوانحا بفضل سجالها
 هذى النوى عرك الرحي بشفاله
 بغيا فراق العين حسن مآلها
 فإن انتشوا فبحلوها وحلالها
 أحد وناء لها لبعده منالها
 فهريق ما في الدن من جريالها
 قدسية جاءت بنخبة آلهـ
 ما سوغ القسيس من أرمالها
 عينًا يورقها طروق خيالها
 وخوى فلم يثبت لنور جلالها
 سمحت يد بيضا بمثل نوالها
 ما لاح منها غير لمعة آلهـ
 فيما يعبر عن حقيقة حالها
 قيروق شاربها صفاء زلالها

اعلم أبا الفضل بن يحيى أننى
فإذا رأيت مدلها مثلى فخذ
لا تعجب لما ترى من شأنها
فصلاحها بفسادها ونعيمها
ومن العجائب أن اقيم ببلدة
شغلوا بدنياهم أما شغلهم
حبوا بجهلهم فإن لاحت لهم
وإن انتسبت فإننى من دوحة
من حمير من ذى رعين من ذوى
وإذا رجعت لطيتى معنى فما
لله درك أى نجل كريمة
ولأنت لا عدمتك والد فخرها
اغلظ على من عاث من أئدالها
والبس بما أوليتها من نعمة
خذا أبا الفضل بن يحيى تحفة
ما جاء فى مضمارها شعر ولا
وأئل أبا البركات من بركاتها
من بعدها أخرى على آمالها
فى عذله إن كنت من عذالها
فى حلها إن كان أو ترحالها
بعذابها ورشادها بضلالها
يومًا وأسلم من أذى جهالها
عنى فكم ضيعت من اشغالها
شمس الهدى عبثوا بضوء ذبالها
يتفياً الإنسان برد ظلالها
حجر من العظماء من أقيالها
سلساله بأرق من صلصالها
ولدت فاس منك بعد حيالها
وسماك سؤدها وبدر كمالها
واخشع لمن تلقاه من أبدالها
حلل الشاء وجر من أذيالها
جاءتك لم ينسج على منوالها
سمعت قريحة شاعرٍ بمثالها
وادفع محال شكوكه من آلهـا

قال السلطان أبو عنان رحمه الله^(١): أخبرنا شيخنا الإمام العالم العلامة، وحيد زمانه، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلى رحمه الله قال:

لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق، اجتمع هناك بقاضى القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، فكان من قوله له: كيف حال الشيخ العالم أبى عبد الله بن خميس؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف، ويطنب فى ذكر فضله، فبقى الشيخ أبو إسحاق متعجباً، وقال: من يكون هذا الذى حليتموه بهذا الحلى ولا أعرفه ببلدى؟ فقال له هو القائل:

«عجباً لها أيدوق طعم وصالها»

قال: فقلت له: إنَّ هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التى وصفتهم، إنّما هو عندنا شاعر فقط. فقال له: إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيق بما وصفناه. قال السلطان أبو عنان: وأخبرنا شيخنا أبو عبد الله المذكور أنّ قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له، تعلق موضع جلوسه للمطالعة، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأمله والنظر فيها.

ثم قال السلطان أبو عنان^(٢): قال لنا شيخنا أبو عبد الله الأبلى المذكور:

وقد تعرفت أنّه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقي الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالا لها. انتهى.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٩.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٧٠.

وقد وصل ابن خميس رحمه الله هذه القصيدة إلى قاضى القضاة بنشر
لم أثبتة هنا لطوله، ولما قيل إنَّ هذا الرجل معرى النزعة، أى نظمه أحسن من
نشره؛ وقد أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة وأوردها السلطان أبو عنان فى
مروياته .

وكان ابن خميس بعد مفارقتة بلده تلمسان، سقى الله أرجاءها أنواء
نيسان، كثيرا ما يتشوق لمشاهدها، ويتأوه عند تذكره لمعاهدها، وهى شيمة
الأحرار فى حينهم إلى أوطانهم وللدهر إحلاء وإمرار .
فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى^(١):

تلمسان لو أنَّ الزمان بها يسخو	منى النفس لا دار السلام ولا الكرخُ
ودارى بها الأولى التى حيل دونها	مثار الأسى لو أمكن الحنقَ اللَّبِخُ ^(٢)
وعهدى بها والعمر فى عنفوانه	وماء شبابى لا أجين ولا مطخ ^(٣)
قرارة تهيام ومغنى صباية	ومعهد أنس لا يلذ به لطخُ
إذ الدهر مثنى العنان منهنه	ولا ردع يثنى من عنان ولا ردخ ^(٤)
ليالى لا أضغى إلى عذل عاذل	كأن وقوع العذل فى أذنى صمخُ

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٧٠ وبهامشه: «وهى قصيدة مليئة بالغريب تعمدنا ولذا احتاجت
ألفاظها إلى شرح؛ فاضطررنا إلى الخروج عن خطتنا فى الإقلال من الشروح اللفظية
وهى نفس الخطة التى اتبعناها .

(٢) اللَّبِخُ: الاحتيال .

(٣) المطخ: ما يبقى فى الحوض والغدير من الماء الذى فيه الدعاميس، لا يقدر على شربه .

(٤) الردخ: الردع .

معاهد أنس عطلت فكأنها ظواهر ألفاظٍ تعمدتها النسخُ
وأربعُ أَلَفٍ عفا بعض آيها كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخُ
فمن يك سكراناً من الوجد مرةً فإنى منه طول دهرى لللتخ^(١)
ومن يقدح زنداً لموقد جذوة فزند اشتياقى لا عفار ولا مرخ
أنسى وقوفى لاهيا فى عراصها ولا شاغل إلا التودع والسبخ
وإلا اختيالى ماشيا فى سماطها رخيا كما يمشى بطرته الرخ^(٢)
وإلا فعدوى مثل ما ينفر الطلا وليدا وحجلى مثل ما ينهض الفرخ
كأنى فيها أردشير بن بابك ولا ملك لى إلا الشبيبة والشرخ
وإخوان صدق من لداتى كأنهم جاذر رمل لا عجاف ولا بزخ^(٣)
وعاة لما يلقي إليهم من الهدى وعن كل فحشاء ومنكر صلخ^(٤)
هم القوم كل القيوم سيان فى العلا شبابهم الفرعان والشيخة السلخ^(٥)
مضوا ومضى ذاك الزمان وأنسه ومر الصبا والمال والأهل والبذخ
كأنهم لم يكن يوماً لأقلامهم بها صرير ولم يسمع لأكعابهم جبخ^(٦)
ولم يك فى أرواحها من ثنائهم شميم ولا فى القضب من لينهم ملخ^(٧)

(١) الملتخ: الذى اشتد سكره.

(٢) الرخ: حجر حر الحركة من أحجار الشطرنج.

(٣) الأبرخ: المقعّس، أى الذى برز صدره ودخل ظهره.

(٤) الصلخ: جمع أصلخ وهو التام الصمم.

(٥) الفرعان: الطويل الشعر، والسلخ: الصلع.

(٦) الجبّخ: قعقة الكعاب فى المسير.

(٧) الملخ: الطراوة والتشنى.

ولا فى محيا الشمس من هديهم سنى ولا فى جبين البدر من طيهم ضمخ
سعيتم بنى عمور فى شت شملنا فما تَجْرُكم ربح ولا عيشنا ربح^(١)
دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم فردكم عنه التعجرف والجمخ^(٢)
تعاليتم عجباً فطم عليكم عباب له فى رأس عليائكم جلخ
وهى طويلة جدا، ألم فيها بمدح سبتة وملوكها بنى العزفى، فقال^(٣):
تركت لمينا سبتة كل نُجْعَةٍ كما تركت للعز أهضابها الشمخ
وآليت ألا أرتوى غير مائها ولو حل لى فى غيره المن والمذخ^(٤)
وآلا أخط الدهر ألا بعقرها ولو بوأتنى دار إمرتها بلخ
فكم نقعت من غلة تلكم الأضا وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ^(٥)
وحسبى منها عدلها واعتدالها وأبحرها العظمى وأريافها النفخ
وأملكها الصيد المقولة الألى لعزهم تعنو الطراخمة البلخ^(٦)
كواكب هدى فى سماء رياسة تضىء فما يدجوا ظلال ولا يطخو^(٧)
ثواقب أنوارها ترى كل غامض إذا الناس فى طخياء غبها التخوا^(٨)

(١) الربخ: الوقوع فى الشدة.

(٢) الجمخ: العجرفة.

(٣) نفخ الطيب ج ٥ ص ٣٧٣.

(٤) المذخ: نوع من العسل.

(٥) الأضاة: الغدير أو البحيرة، واللبخ نوع من الشجر ينفع ورقه فى التداوى.

(٦) الطراخمة: المتكبرون. البلخ: المتعجرفون.

(٧) طخا الضلال: اشتدت ظلمته.

(٨) الطخياء: الظلمة الشديدة. التخ: حَارَ واضطرب.

وروضات آداب إذا ما تأرجت
مجامر ند فى حدائق نرجس
وأبحر علم لا حياض رواية
بنو العزفين الألى من صدورهم
إذا ما الفتى منهم تصدى لغاية
رياسة أخيار وملك أفاضل
إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا
نزورهم حُذًّا نحافا فننشئ
يربوننا بالعلم والحلم والنهى
وما الزهد فى أملاك خم ولا التقى
وإلا ففى رب الخورتق غنية
تطلع يوما والسدير أمامه
تضاءل فى أفياء أفنانها الرمح^(١)
تم ولا لفح يصيب ولا دخ^(٢)
فيكبر منها النضح أو يعظم النضح
وأيديهم تملأ القراطيس والطرخ^(٣)
تأخرت من ينحو وأقصر من ينخو
كرام لهم فى كل صالحة رضح^(٤)
علينا وإن حلت بنا شدة رخوا
وأجمالنا دلح وأبداننا دلخ^(٥)
فما خرجنا بز ولا حدنا برخ^(٦)
بيدع وللدنيا لزوق بمن يرخو
فما يومه سر ولا صيته رضح^(٧)
وقد نال العجب ما شاء والجفخ^(٨)

(١) الرمح: الشجر المجتمع.

(٢) الدخ: لغة فى الدخان.

(٣) الطرخ: الأحواض، والمفرد طرخة.

(٤) الرضح: النوال.

(٥) الأحذ: الضامر، الدلوح: المتثاقل لثقل حمله، والدلوخ: السمين.

(٦) البز: الابتزاز، والبرخ: القهر.

(٧) الرضح: خبر تسمعه ولا تستيقنه.

(٨) الجفخ: التكبر.

وعن له من شيعة الحق قائم فأصبح يجتاب المسوح زهادة
 وفى واحد الدنيا أبى حاتم لنا تخلى عن الدنيا تخلى عارف
 وأعرض عنها مستهينا بقدرها فكان له من قلبها الحب والهوى
 وما الغرض عنها وهى فى طلابه ولا مدرك ما شاء من شهواتها
 ولكننا نعى مراراً عن الهدى وما لامرئ عما قضى الله مزحل
 أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد لسوغت أبناء الزمان أياديا
 بحجة صدق لا عمام ولا وشخ^(١) وقد كان يؤذى بطن أحمصه النخ
 دواء ولكن ما لأدوائنا نتخ^(٢) يرى أنها فى ثوب نخوته لتخ^(٣)
 فلم يثنه منها اجتذاب ولا مصخ^(٤) وكان لها من كفه الطرح والطخ^(٥)
 كمن فى يديه من معاناتها نبخ^(٦) كمن حظه منها التمتع والنجخ^(٧)
 ونصلج حتى ما لأذاننا صمخ^(٨) ولا لقضاء الله نقض ولا نسخ
 يساد بها إلا وأنت لها سنخ لدرتها فى كل سامعة شخ^(٩)

(١) العمام: القدم العبيّ، الوشخ: الضعيف.

(٢) التتخ: الانتزاع.

(٣) اللتخ: كاللطن أى البقعة فى الثوب.

(٤) المصخ: جذب الشئ وانتزاعه.

(٥) الطخ: قذف الشئ بعيداً.

(٦) النبخ: قروح فى اليد.

(٧) التمتع: الاكتفاء بقليل من لبن أو تمر، والنجخ: الزهد فيها.

(٨) نصلج: نصاب بالصمم، والصمخ: صماخ الأذن.

(٩) الشخ: صوت الشخب.

وأجريتها فيهم عوائد سؤدد
غذتهم غواديها فهي في عروقهم
وعمتهم حزنا وسهلا فأصبحوا
بنى العزفيين أبلغوا ما أردتم
ولا تقعدوا عمن أراد سجالكم
وخلوا وراء كل طالب غاية
ولا تذروا الجوزاء تعلو عليكم
لأفواه أعدائي وأعين حسدى
دعوها تهادى فى ملاءة حسنهما
يمانية زارت يمانى فاثنت
ومن مطلع قصيدة لابن خميس رحمه الله فى مدح بلدة تلمسان -
حاطها الله تعالى - قوله:

تلمسان جادتك الغواذى الروائح وأرست بواديها الرياح اللواقح^(٧)

(١) الوزخ: نوع من الشجر، والولخ: الطويل من العشب.

(٢) الزلخ: الزلق.

(٣) الغرب: الدلو، الجف الذى تشن: الغرف: انتشار الماء، وضخ: قليل.

(٤) انخوا: من النخوة، وهى الافتخار والتعظم.

(٥) المدخ: العظمة.

(٦) الزمخ: الكبر وشموخ الأنف.

(٧) نفح الطيب ج ٧ ص ١٣١.

وسح على ساحات باب جياها ملث يصافى تربها ويصافح
يطير فؤادى كلما لاح بارق ويزداد شوقي كلما مر سانح
ولم يعلق بحفظى من هذه القصيدة سوى ما ذكرت. وكنت تركتها
بتلمسان ولم أرها الآن بفاس حماها الله.

و«باب جيا» الذى أشار إليه هو أحد أبواب تلمسان المحروسة، وفيها
يقول الفقيه العلامة الناظم الناثر أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغرى من
قصيدة رفعها للسلطان أبى حمّو، رحم الله الجميع:

أيها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد^(١)
وصلوها أصائلا بليال كلال نظمن فى الأجياد
فى رياض منضدات المجانى بين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المبانى باديات السنى كمشهب بوادى
رق فيها النسيم مثل نسيبى وصفنا النهر مثل صفو ودادى
وزها الزهر والغصون تثنت وتغنت عليه ورق شوادى
وانبرى كل جدول كحسام عارى الغمد سندسى النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سطرت بغير مداد
تذكر الوشم فى معاصم خود قضب فوقه ذوات امتداد
وكئوس المنى تدار علينا بجنى عفة ونقل اعتقاد

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٢١.

واصفرار الأصيل فيها مدام
كان غدونا بها لأنسٍ روحنا
ولكم روحه على الدوح كادت
رقت الشمس في عشاياه حتى
جددت بالغروب شجو غريب
يا حيا المزن حيهها من بلاد
وتعاهد معاهد الأنس منها
حيث مغنى الهوى وملهى الغوانى
ومقر العلا ومرقى الأمانى
كل حسن على تلمسان وقف
ضحك النور فى رباها وأربى
وسما تاجها على كل تاج
يدعى غيرها الجمال فيقضى
وبشعرى فهمت معنى علاها
حضرة زانها الخليفة موسى
وحبها بكل بذل وعدل
ملك جاوز المدى فى المعالى
معقل للهدى منيع النواحي
وصفير الطيور نغمة شادى
جادهها رائح من المزن غادى
أن تريح الصبا لنا وهو غادى
أحدثت منه رقة فى الجماد
هاجه الشوق بعد طول البعاد
غرس الحب غرسها فى فؤادى
غرس الصبا بصوب العهد
ومرّاد المنى ونيل المراد
ومجرّ القنى ومجرى الجياد
وخصوصا على ربا العباد
كهف ضحّاكها على كل نادى
وسطا على كل وادى
حسنها أن تلك دعوى زياد
من حلاها فهمت فى كل وادى
زينة الحلّى عاطل الأجياد
وحماها من كل باغ وعادى
فالنهايات عنده كالمبادى
مظهر للعلا رفيع العماد

قاتل المحل والأعدى جميعا
 كلما ضنت السحاب أغنت
 كم هبات له وكم صدقات
 فأيدى خليفة الله موسى
 ركب الجود فى بسيط يديه
 جل باريه ملجأ للبرايا
 جل من خصه بتلك المزاي
 شيم حلوة الجنى وسجاي
 يا إمام الهدى وشمس المعالى
 لك بين الملوك سر خفى
 فكأن البلاد كفك مهما
 قبض كفك البنان عليه
 وبكم تصلح البلاد جميعا
 لم نزل دائماً تحن إليكم
 لو أعينت بمنطق شكرتكم
 قد أطاعتكم البلاد جميعا
 فأريحوا الجياد أتعبتموها
 واهنئوا خالدين فى عز ملك
 بغيرار الظبا وعر الأيادى
 راحتاه عن السحاب الغوادى
 عائدات على العفاة بوادى
 أبحرت عذبة على الورد
 فتلافى به تلاف العباد
 كالحيا ضامنا حياة البلاد
 باهرات من طارف وتلاد
 يشيد المجد أنها كالشهاد
 وغمام الندى وبدر النوادى
 ليس معناه للعقول ببادى
 كان فيها من يتمى للعباد
 فانشنى بالإذعان حلف انقياد
 إن آراءكم صلاح البلاد
 كحنين السقيم للعواد
 مثل شكر العفاة للأجواد
 طاعة أرغمت أنوف الأعداى
 وأقروا السيوف فى الأغمد
 قائم السعد دائم الإسعاد

وإليكم من مذهبات القوافي حكما سهلت ليان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الأفق بالثناء المشاد
ذو ابتسام كزهر روض مجود وانتظام كسلك در مجاد
ومن قول الثغرى المذكور فى تلمسان وسلطانه أيضاً^(١):

تاht تلمسان بحسن شبابها وبدا طراز الحسن فى جلبابها
فالبشر يبدو من حباب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها وبروجها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبى حمو الذى يحمى حمى أربابها
ملك شمائله كزهر رياضها ونداء فاض بها كفيض عبابها
أعلى الملوك الصيد من أعلامها وأجلها من صفوة ولبابها
غارت بغرة وجهه شمس الضحى وتنقبت خجلا بثوب ضبابها
والبدر حين بدت أشعتها له حسنا تضائل نوره وخبابها
لله حضرته التى قد شرفت خدامها فسمو بخدمة بابها
فألثم فى يمينه يبلغها المنى والمدح فى علياه من أسبابها
وتذكرت بقوله رحمه الله تعالى:
أيّها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٥ .

قصيدة أبي المكارم منديل بن أجروم في ذكر فاس المحروسة وباب الفتوح منها وموضع من متنزهاتها ولا شك أنَّ كل واحدة من هاتين القصيدتين تنظر إلى الأخرى وناظماها متعاصران فالله أعلم أيهما أخذ من الآخر على أنَّ الرويَّ مختلف وقد يقال إنَّ ذلك من باب توارد الخواطر.

ونص قصيدة ابن أجروم المذكور^(١):

أيها العارفون قدر الصبوح	جددوا أنسنا بباب الفتوح
جددوا ثم أنسنا ثم جدوا	نسرَح الطرف في مكان فسيح
حيث شابت مفارق اللوز نورا	وتساقطن كاللجين الصريح
وبدا منه كل ما احمر يحكى	شفقا مزقته أيدي الريح
وكان الذي تساقط منه	نقط لحن من دم مسفوح
وإذا ما وصلتُم للمصلى	فلتحلوا بموضع التسبيح
وبطيفورها فطوفا لكيما	تبصروا من ذراه كل سطوح
ولتقيموا هناك لمحة طرفٍ	لتردوا بها دماء الروح
ثم حطوا رحالكم فوق نهر	كلَّ في وصفه لسان المديح
فوق حافاته حدائق خضر	ليس عنها لعاشق من نزوح
وكان الطيور فيها قيان	هتفت بين أعجم وفصيح
وهي تدعوكم إلى قبة الجو	ز هلموا إلى مكان مليح

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٣ .

فيه ما تشتهون من كل نور
وغصون تهيج رقصاً متى ما
فأجيبوا دعاءها أيها الشرُّ
واجنحوا للمجون فهو جدير
واخلعوا ثم للتصابى عذارا
وإذا شئتم مكاناً سواه
فاجمعوا أمركم لنحو أتي
عطرت جانبيه كف الغوادي
قل لمهيار إن شملت شذاها
أين هذا الشذا الذكي من القي
حبذا ذلك المهاد مهاداً
ثم من ذلك المهاد أفيضوا
فيه للحسن دوحة وروايا^(١)
وحجار تدعى حجار طبول
تنشر الشمس ثم كل غدو
وسبو من هناك يسبى عقولا
وعيون بها تقرر عيون
فرشت فوقها طنافس زهر

مغلق في الكمام أو مفتوح
سمعت صوت كل طير صدوح
بُ وخلوا مقال كل نصيح
وخليق من مثلكم بالجنوح
إن خلع العذار غير قبيح
هو أجلى من ذلكم فى الوضوح
جاء كالصل من قفار فيح
بشذا عرف زهرها الممنوح
قول مستخير أخى تجريح
صوم والرند والغضا والشيخ
بين دان من الربا ونزوح
نحو هضب من الهموم مريح
وانشراح لذى فؤاد قريح
غير أن التطبيل غير صحيح
زعفراناً مبللاً بنضوح
ويجلى لحاظ طرف طموح
وكلام يأسو كلوم الجريح
ليس كالعهن نسجها والمسوح

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «زوايا» وصوابه من نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٥ و«روايا»

جمع راوية. والراوية مزادة الماء أو الدابة التى تحملها. ولعل المراد بها: الناعورة التى يرفع بها الماء.

كلما مر فوقهن طليح عاد من حسنهن غير طليح
فانهضوا أيها المحبون مثلى لنرى ذات حسنهما المملوح
هكذا يربح الزممان وإلا كل عيش سواء غير ربيح

رجع إلى نظم ابن خميس رحمه الله

ومن بديع نظمه قصيدة مدح الوزير ابن الحكيم .

قال ابن الخطيب: وهى من مشاهير أمداحه فيه، وكتب بها إليه من
المرية، وألم فيها بذكر بلده تلمسان، وما حل بها من البلاء والحصار فى ذلك
التاريخ من قبل السلطان أبى يعقوب يوسف ابن السلطان المجاهد الكبير أبى
يوسف يعقوب بن عبد الحق، وقد رحل الشيخ الولى أبو زيد عبد الرحمن
الهزميرى نفعنا الله ببركات من بلده أغمت للشفاعة عند السلطان أبى يعقوب
فى أهل تلمسان المحصورين^(١)، فلم يقبل شفاعتهم، فقال الشيخ سيدى أبو
زيد كلاما معناه: إِنَّ سَعَادَةَ يَقْضَى هَذَا، ورجع الشيخ إلى فاس، فاتفق أن
هذا العبد كان مع السلطان فى الحمام، وكان له عليه حقد، فانتهاز فيه الفرصة
ووجأه بخنجر، فكان فى ذلك حتفه، فنفس الله عن أهل تلمسان بعد
حصارها نحو العشر سنين. ولما وصل الخبر إلى سيدى أبى زيد بموت
السلطان قال: وعبد الرحمن يَمُوت، يعنى نفسه؛ و«يَمُوت»: بتشديد الميم،
على لغة البربر؛ فتوفى رحمه الله ودفن بمسجد الصفارين^(٢)، وقبره مشهور
مقصود الإجابة، نفعنا الله به، وقد زرته مرارا لا أحصيها، ودعوت الله عنده
بما أرجو قبوله .

وقد أشار أبو عبد الله بن خميس فى هذه القصيدة إلى ذلك الحصار

(١) العبارة فى سائر الأصول فيها سقط وتحريف، وقد اعتمدنا فى تكملتها وتصويبها على ما

ورد فى نيل الابتهاج: ج ١ ص ٢٦٣ وما اقتضاه السياق.

(٢) فى سائر الأصول: «الصابرين» والمثبت من نيل الابتهاج.